

19.00

عجائب سورة الكوثر

للامام جارا لله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
"الترغى سنة ٥٣٨ هـ"

تحقيق
حامد الخفصاف



دار البعث للنشر

إِنْجَازُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ

إيجاز سورة الكهف

لِلإمام جارا لله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
"المتوفى سنة ٥٢٨هـ"

تحقيق
حامد الخفاف

دار البصائر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار البعث للنشر والطباعة والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - صرّ: ٢٥/١٦ - تليكس: ٢٢٥٩٧ - بلاغ - بيروت - لبنان

الإهداء

إلى :

مَنْ أَرْضَعْتَنِي حَبَّ الْخَيْرِ لَبَنًا
وَعَذَّتْنِيهِ طَعَامًا ...

فنشأتُ :

أعشقُ النورَ والابتسامة والربيع ...
المجاهدة الكبيرة في حَقِّي وحقِّ إخوتي

إلى والدتي

أهدي هذا الجهد المتواضع
قُبْلَةً عَلَى قَدَمَيْهَا ، عِرْفَانًا وَوَفَاءً .

حامد

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا مجال للشك فيه أنّ عهد نزول القرآن في حياة العرب يمثل ذروة اهتمام المجتمع القبلي في الجزيرة العربية ببلاغة الكلمة وفصاحة المنطق ودقة الحسّ البياني ، أكثر من أيّ وقت مضى ، فليس غريباً عنا ما كانت تُوليه القبيلة من احترام وتقدير لأصحاب اللسان الماشق والحسّ المرهف ، فترى الشاعر سيف القبيلة الناطق ، الذي تجرّده بوجه أعدائها ، وتقدّمه درعاً واقياً يردّ عنها سهام الكلام ، حتّى أنّ أبياتاً من الشعر تحوي من قارص الكلم أشدّه يمكن أن تفعل فعلها أشدّ من السنان وأمضى من المهند المصقول .

وذاك سوق عكاظ ، نادي الأدباء العرب - إن صحّ التعبير - يجتمعون فيه ، لتتصارع الكلمة في حلبة البلاغة ، وليتبارز البيان بسيوف الفصاحة ، تُشدّ إليه الرحال ، وتُعقّد عليه الآمال ، كلّ ذلك كان يعمّق في الجزيرة العربية حقيقة كونها مجتمع الكلمة الذي لم يعرف اللحن له طريقاً ، ولا العجمة سبيلاً .

وجاء القرآن ، كلام الله المجيد ، ينشر من أريجهِ عطر القداسة ،

ويضم بين دفتيه ما يحير العقول ، ويأخذ بالألباب ، أنظروا إلى عدو الله الوليد بن المغيرة المخزومي ، فاغراً فاه ، يتمتم بحيرة : «والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذوق ، وإنه ليعلو وما يُعلى» .

جاء ليتحدّى كبرياء الكلمة في عقر دارها ، وشموخ البيان في عنفوانه : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ ، فكانت المعجزة التي ألقت لها الفصاحة قيادها ، وكأنّ دولة البلاغة العظمى كانت تنتظر ملكها بلهفة وشوق ، وهكذا كان .

وكتابنا الصغير هذا ، جواب من الزمخشري - رجل البلاغة والفصاحة - على عدّة إشكالات ، وردت من صديق له حول إعجاز القرآن ، بصورة رسالة بعثها إليه ، سائلاً إياه الإجابة فتصدّى المؤلف للجواب عنها ، بأسلوبه الشيق الرفيع ، برسالة حول إعجاز سورة الكوثر ، هي كما قال عنها : «رسالة من أبلغ الرسائل ، أورد فيها مقدّمة في إعجاز القرآن الكريم ، في فضل اللسان العربي على كلّ لسان ، على وجه عجيب ، وأسلوب على طرف الثمام قريب غريب» مضيفاً بذلك للمكتبة الإسلامية جهداً رائعاً يشار إليه بالبنان ، حاولنا أن نضفي عليه بتحقيقنا إياه من روعة الإخراج ما نتمكنه ، ومن متطلبات التحقيق ما يحتاجه .

وكنت فيما سبق قد نشرت هذه الرسالة في مجلة «تراثنا» الموقرة ، العدد الثالث عشر ، التي تصدرها مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ثم تبنّى الأخوة الأعزاء في دار البلاغة إحياء هذا الأثر النفيس مستقلاً ، فأعدت النظر فيه مصححاً ، وراجعته منقّحاً ، مستهدفاً بذلك أن لا أبخس الكتاب حقّه ضبطاً وتعليقاً ، والله ولي التوفيق .

ترجمة المؤلف

هو العلامة جابر الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، كبير المعتزلة ، صاحب الكشف والمفصل^(١) ، أمره في الاشتهار أوضح من الشمس وأبين من الأمس .

-
- (١) توجد ترجمته في : الأنساب ٦ : ٢٩٧ ، معجم البلدان ٣ : ١٤٧ ، معجم الأدباء ١٩ : ٤١/١٢٦ ، الكامل في التاريخ ١١ : ٩٧ ، إنباه الرواة ٣ : ٧٥٣/٢٦٥ ، وفيات الأعيان ٥ : ٧١١/١٦٨ ، ميزان الاعتدال ٤ : ٨٣٦٧/٧٨ ، العبر ٢ : ٤٥٥ ، سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٩١/١٥١ ، تذكرة الحفاظ ٤ : ١٢٨٣ ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ١٧٣/٢٢٨ ، مرآة الجنان ٣ : ٢٦٩ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢١٩ ، لسان الميزان ٦ : ٤ ، بغية الوعاة ٢ : ١٩٧٧/٢٧٩ ، طبقات المفسرين ١٠٤/١٢٧ ، طبقات المفسرين للداودي ٢ : ٦٢٥/٣١٤ ، شذرات الذهب ٤ : ١٢١ ، روضات الجنات ٨ : ٧١١/١١٨ ، الكنى والألقاب ٢ : ٢٩٧ ، هدية العارفين ٢ : ٤٠٢ ، وعن هامش السير : نزهة الألباء : ٣٩١ ، المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٦ ، إشارة التعيين : الورقة ٥٤٥٣ ، البدر السافر : ورقة ١٩٣ ، تاريخ الإسلام : وفيات ٥٣٨ ، دول الإسلام ٢ : ٥٦ ، تلخيص ابن مكتوم : ٢٤٣ ، الجواهر المضية ٢ : ١٦٠ ، العقد الثمين ٧ : ١٣٧ ، طبقات المعتزلة : ٢٠ ، طبقات ابن قاضي شهبة ٢ : ٢٤١ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٤ ، تاج التراجم : ٧١ ، طبقات الفقهاء لطاش كبرى : ٩٥٩٤ ، مفتاح السعادة ٢ : ٩٧ ، أزهار الرياض ٣ : ٢٨٢ ، الفوائد البهية : ٢٠٩ ، كنوز الأجداد : ٢٩١ ، تاريخ بروكلمان ٥ : ٢١٥ .

ولادته وبلده :

ولد الزمخشري في يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر خوارزم ، على ما نقله القفطي عن ابن اخته أبي عمر عامر بن الحسن السمساري^(٢) ، وقال أيضاً : «ونقلت من كتاب محمد بن محمد بن حامد قال : كان مولده - يعني الزمخشري - في سابع عشر شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة»^(٣) .

يقول الزمخشري : «وأما المولد فقريّة من قرى خوارزم مجهولة ، يقال لها : زمخشر ، سمعت أبي قال : اجتاز بزمخشر أعرابي فسأل عن اسمها واسم كبيرها ، فقليل له : زمخشر والردّاد ، فقال : لا خير في شرّ ورد ، ولم يلّم بها»^(٤) .

وزَمَخْشَر - بفتح أوله وثانيه ، ثمّ خاء معجمة ساكنة ، وشين معجمة ، وراء مهملة - : قرية جامعة من نواحي خوارزم^(٥) ، وقال القفطي : سمعت بعض التجار يقول : إنّها دخلت في جملة المدينة ، وإنّ العمارة لمّا كثرت وصلت إليها وشملتّها ، فصارت من جملة محالّها^(٦) .

وقال فيها الشريف أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة الحسيني المكيّ عند مدح الزمخشري :
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداء زمخشرا

(٢) إنباء الرواة ٣ : ٢٦٦ .

(٣) إنباء الرواة ٣ : ٢٧١ .

(٤و٥) معجم البلدان ٣ : ١٤٧ .

(٦) إنباء الرواة ٣ : ٢٦٥ .

جار الله الزمخشري ١١

وأحرِبَ أن تَزْهَى زمخْشَرُ بامرئٍ . إذا عَد في أسد الشرى زمخ الشرى^(٧)
وبعد نشوئه تنقل الزمخشري في بلدته يجوب الأقطار طلباً للعلم وسعيًا
وراء المعرفة ، فطاف الآفاق وتنقل ما بين بغداد ونيسابور ، ثم أقام بمكة
المكرمة ، ولذلك لَقِبَ نفسه جار الله لمجاورته البيت العتيق ، وكان أين ما حلَّ
وارتحل محلَّ احترام وتقدير .

مكانته العلمية :

يعتبر الزمخشري شخصية بارزة في عالم الفصاحة والبلاغة والأدب
والنحو ، نتلمس ذلك جلياً في مصنفاته وآثاره من جهة ، ومن إطرء
وتبجيل كل من ترجم له من جهة أخرى .

يقول القفطي : وذكره صاحب الوشاح - ذكره بالقباب وسجع له على
عادته - فقال : «أستاذ الدنيا ، فخر خوارزم ، جار الله العلامة أبو القاسم
محمود الزمخشري ، من أكابر الأمة ، وقد ألفت العلوم إليه أطراف
الأزمة ، واتفقت على إطرئه الألسنة ، وتشرفت بمكانه وزمانه الأمكنة
والأزمنة ، ولم يتمكن في دهره واحد من جلاء رذائل النظم والنثر ،
وصقال صوارم الأدب والشعر ، إلا بالاهتداء بنجم فضله ، والاقتداح بزند
عقله ، ومن طار بقوادم الانصاف وخوافيه ، علم أن جواهر الكلام في
زماننا هذا من نثار فيه ، وقد ساعده التوفيق والاقبال ، وساعفه من الزمان
اليماضي والحال ، حتى اختار لمقامه أشرف الأماكن ، وجمع بجوار بيت
الله الحرام بين الفضائل والمحاسن ، وودع أفراس الأمور الدنياوية
ورواحلها ، وعان من بحار الخيرات والبركات سواحلها ، وقد صغر في

(٧) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٨ .

عيون أفاضل عهده ما رأوه ورووه ، وملك في قلوب البلغاء جميع ما رعوه ووعوه ، وإن كان عدد أبياته التي ذكرتها قليلاً فكماله صار عليها دليلاً^(٨) .

ولما قدم الزمخشري إلى بغداد قاصداً الحجّ زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهتماً له بقدومه ، فلما جلس إليه أنشده متمثلاً :

كانت مُساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن دواد أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن ممّا قد رأى بصري
وأنشد أيضاً :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صَغُرَ الخَبَرُ الخُبْرُ^(٩)

وكان الزمخشري ممّن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة^(١٠) ، وما دخل بلداً إلّا واجتمعوا عليه وتلمذوا له ، واستفادوا منه ، وكان علامة الأدب ، ونسابة العرب ، تُضرب إليه أكباد الإبل ، وتُحطّ بفنائه رجال الرجال ، وتُحدى باسمه مطايا الأمال^(١١) .

وقال ياقوت : كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب ، واسع العلم ، كبير الفضل ، متفناً في علوم شتى^(١٢) .

(٨) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٨ .

(٩) معجم الأدباء ١٩ : ١٢٨ .

(١٠) الأنساب ٦ : ٢٩٧ .

(١١) طبقات المفسرين للسيوطي : ١٠٥ ، إنباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .

(١٢) معجم الأدباء ١٩ : ١٢٦ .

جار الله الزمخشري ١٣

ولا تُريد الإطالة في سرد العبارات الواردة في مدح المصنف والثناء عليه ، ففي ما ذكرناه كفاية لمن يقنع بالتلميح عن التصريح .

مؤلفاته :

- ١ - الكشف في تفسير القرآن .
- ٢ - الفائق في غريب الحديث .
- ٣ - نكت الأعراب في غريب الإعراب ، في غريب إعراب القرآن .
- ٤ - كتاب متشابه أسماء الرواة .
- ٥ - مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة .
- ٦ - الأصل ، لأبي سعيد الرازي إسماعيل .
- ٧ - الكلم النوابع ، في المواعظ .
- ٨ - أطواق الذهب ، في المواعظ .
- ٩ - نصائح الكبار .
- ١٠ - نصائح الصغار .
- ١١ - مقامات في المواعظ .
- ١٢ - نزهة المستأنس .
- ١٣ - الرسالة الناصحة .
- ١٤ - رسالة المسامة .
- ١٥ - الرائض في الفرائض .
- ١٦ - معجم الحدود .
- ١٧ - المنهاج في الأصول .
- ١٨ - ضالة الناشد .
- ١٩ - كتاب عقل الكل .
- ٢٠ - النموذج ، في النحو .

- ٢١ - المفصل ، في النحو .
- ٢٢ - المفرد والمؤلف ، في النحو .
- ٢٣ - صميم العربية .
- ٢٤ - الأمالي في النحو .
- ٢٥ - أساس البلاغة ، في اللغة .
- ٢٦ - جواهر اللغة .
- ٢٧ - كتاب الأجناس .
- ٢٨ - مقدمة الأدب ، في اللغة .
- ٢٩ - كتاب الأسماء ، في اللغة .
- ٣٠ - القسطاس ، في العروض .
- ٣١ - حاشية على المفصل .
- ٣٢ - شرح مقاماته .
- ٣٣ - روح المسائل .
- ٣٤ - سوائر الأمثال .
- ٣٥ - المستقصى ، في الأمثال .
- ٣٦ - ربيع الأبرار ، في الأدب والمحاضرات .
- ٣٧ - تسليية الضرير .
- ٣٨ - رسالة الأسرار .
- ٣٩ - أعجب العجب في شرح لامية العرب .
- ٤٠ - شرح المفصل .
- ٤١ - ديوان التمثيل .
- ٤٢ - ديوان خطب .
- ٤٣ - ديوان رسائل .
- ٤٤ - ديوان شعر .

- ٤٥ - شرح كتاب سيبويه .
- ٤٦ - كتاب الجبال والأمكنة .
- ٤٧ - شافي العي من كلام الشافعي .
- ٤٨ - شقائق النعمان في حقائق النعمان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة .
- ٤٩ - المحاجة ومنتهم مهام أرباب الحاجات ، في الأحاجي والألغاز .
- ٥٠ - المفرد والمركب ، في العربية (١٣) .
- ٥١ - رسالة في إعجاز سورة الكوثر ، وهي الرسالة التي بين يديك .

تلامذته والرواة عنه :

يظهر ممّا ذكره القفطي في إنباه الرواة : «وما دخل بلداً إلّا واجتمعوا عليه وتلمذوا له»^(١٤) كثرة تلاميذه وانتشارهم باعتبار كثرة سفره وتجوّاله في الأقطار ، نذكر منهم ما استطعنا العثور عليه خلال استقراء عاجل لمظان ترجمته :

- ١ - أبو المحاسن إسماعيل بن عبدالله الطويلي .
- ٢ - أبو المحاسن عبد الرحيم بن عبدالله البزاز .
- ٣ - أبو عمر عامر بن الحسن السمسار .
- ٤ - أبو سعد أحمد بن محمود الشاشي .

(١٣) أنظر معجم الأدباء ١٩ : ١٣٤ ، وفيات الأعيان ٥ : ١٦٨ .

(١٤) إنباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .

- ٥ - أبو طاهر سامان بن عبد الملك^(١٥) .
 ٦ - الشيخ علي بن محمد الخوارزمي .
 ٧ - الشيخ محمد بن أبي القاسم بن ياجوك البقالي الخوارزمي اللغوي .

٨ - الشيخ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن المطرز^(١٦) .

شيوخه وأساتذته ومن سمع منهم :

- ١ - أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني .
 ٢ - أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري .
 ٣ - شيخ الإسلام أبو منصور نصر الحارثي .
 ٤ - أبو سعد الشقاني^(١٧) .
 ٥ - أبو الخطّاب بن البطر^(١٨) .

شعره :

ورد شعر الزمخشري متفرّقاً في المصادر التي تعرّضت لترجمته ، فحاولنا جهد الإمكان أن نجتمع شتات ما استطعنا العثور عليه فيها من الأبيات الشعرية سواء كان قطعيّ الصدور عنه أو كان منسوباً إليه ، ونذكر مع كلّ قطعة شعرية مصدر النقل :

(١٥) الأنساب ٦ : ٢٩٨ .

(١٦) روضات الجنّات ٨ : ١٢٣ .

(١٧) معجم الأدباء ١٩ : ١٢٧ .

(١٨) العبر ٢ : ٤٥٥ ، المستفد من ذيل تاريخ بغداد : ٢٢٨ .

قال الزمخشري :

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه في جهلاته يتغمم
ماللتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم
وقال أيضاً :

كثر الشك والخلاف وكل يدعي الفوز بالصراف السوي
فاعتصامي بلا إله سواه ثم حبي لأحمد وعلي
فاز كلّ بحب أصحاب كهف كيف أشقى بحب آل نبي ؟
وقال في مدح تفسير الكشاف :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشاف
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافى (١٩)
وقال يرثي أستاذه أبا مضر النحوي :

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشابه أبو مضر أذني تساقط من عيني (٢٠)
وقال أيضاً يرثيه :

أيا طالب الدنيا وتارك الأخرى ستعلم بعد الموت أيهما أحرى
ألم يقرعوا بالحق سمعك ؟ اقل : بلى وذكّرت بالآيات لو تنفع الذكرى
أما قر الطيش الذي فيك واعظ كأنك في أذنك قر ولا وقرا
أمن حجر صلد فؤادك قسوة أم الله لم يودعك لباً ولا حجراً

(١٩) معجم الأدباء ١٩ : ١٢٩ .

(٢٠) معجم الأدباء ١٩ : ١٢٤ ، إنباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .

وما زال موتُ المرءِ يخرب دارَهُ
وموتُ فريدِ العصرِ قد خربَ العَصرا
وصك بمثل الصخر سمعي نعيه
فشبهت بالخنساء إذ فقدت صخرًا (٢١)

وقال أيضاً :

إذا سألوا عن مذهبي لم أبج به
وإن حنفيّاً قلت ، قالوا بأنني
وإن مالكيّاً قلت ، قالوا بأنني
وإن شافعيّاً قلت ، قالوا بأنني
وإن حنبليّاً قلت ، قالوا بأنني
وإن قلتُ من أهل الحديث وحزبه
تعجبت من هذا الزمان وأهله
وأخبرني دهري وقدم معشرا

وأكتمه ؛ كتمانهِ لي ، أسلمُ
أبيح الطلا وهو الشراب المحرمُ
أبيح لهم أكل الكلاب وهم همُ
أبيح نكاح البنت والبنت تحرمُ
ثقل حلولي بغيض مجسمُ
يقولون تيسُ ليس يدري ويفهمُ
فما أحدٌ من ألسن الناسِ يسلمُ
على أنهم لا يعلمون وأعلمُ (٢٢)

وله أيضاً :

سهرى لتنقيح العلوم ألدّ لي
وتمايلي طرباً لحلّ عويصة
وصرير أقلامي على أوراقها
وألدّ من نقر الفتاة لدفّها
أبيت سهران الدجى وتبيتته

من وصل غانية وطيب عناق
أشهى وأحلى من مدامة ساق
أحلى من الدوكاء والعشّاق
نقري لألقي الرمل عن أوراق
نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي (٢٣)

وقال أيضاً :

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر
وما تطينا النجل من أعين البقر

(٢١) إنباه الرواة ٣: ٢٦٧ .

(٢٢) مقدمة الفائق ١ : ٩ .

(٢٣) مقدّمة الفائق ١ : ٨ .

فإنّا اقتصرنا بالذين تضايقت
مليح ولكن عنده كلّ جفوة
ولم أنس إذ غاظته قرب روضة
فقلت له : جثني بورد وإنما
فقال : انتظرنى رجع طرف أجيء به
فقال : ولا ورد سوى الخدّ حاضر

وله أيضاً :

لا تلمني إذا وقيت الأواقي
فالأواقي لماء وجهي أواقي (٢٥)
وقال أيضاً في ذمّ متابعة النساء :

اعصر النساء فتلك الطاعة الحسنه
تعوقه عن كمال في فضائله
ولن يسود فتى أعطى النساء رسته
ولو سعى طالباً للعلم ألف سنة (٢٦)
ومما ينسب إليه قوله :

تزوجت لم أعلم وأخطأت لم أصب
فوالله ما أبكي على ساكني الثرى
ولكنني أبكي على المتزوج (٢٧)
وينسب له في مدح الخمول :

اطلب أبا القاسم الخمول ودع
شبهه ببعض الأموات نفسك لا
غيرك يطلب أسامياً وكنى
تبرزه إن كنت عاقلاً فطنا

(٢٤) وفیات الأعيان ٥ : ١٧٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٠ : ١٥٥ ، وقال الذهبي مُعلّقاً : هذا شعر ركيك لا رقيق .

(٢٥) روضات الجنّات ٨ : ١٢٦ .

(٢٦) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .

(٢٧) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .

ادفنه في البيت قبل ميته
علك تطفي ما أنت موقده

ومن شعره :

أقول لظبي مرّ بي وهو راتع :
فقلت : وفي حكم الصباية والهوى
فقلت : وفي ظل الأراكة والحمى
وقال أيضاً :

لا بُدّ في غفلةٍ يعيش بها الـ
أما رأيت الصحيح يؤلمه
وله أيضاً :

أشمال ويحك بلغي تسليمي
مرّي به وتعلّقي بردائه
قولي له : ما بال قلبك قاسياً
إنّي أجلك أن أقول ظلّمتني

وأجاب الزمخشري الأمير شبل
البكري الذي مدحه بعدة أبيات فقال :

شعره أمطر شعبي شرفاً
كيف لا يستاسد النبات إذا
فاعتلى منه نبات الجسد
بات مسقياً بنوء الأسد

(٢٨) الكنى والألقاب ٢ : ٢٦٨ .

(٢٩) شذرات الذهب ٤ : ١٢١ .

(٣٠) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٠ .

وقال أيضاً في قصيدة طويلة يمدح بها الوزير مجير الدولة
الأردستاني :

أيا حبذا سعدى وحبّ مقامها	ويا حبذا أين استقلّ خيامها
حياتي وموتي قرب سعدى وبعدها	وعزّي وذليّ وضلّها وانصرامها
سلام عليها أين أمست وأصبحت	وإن كان لا يُقرأ عليّ سلامها
رعى الله سرحاً قد رعى فيه سرحها	وروّض أرضاً سام فيه سوامها
إذا سحبت سُعدى بأرضٍ ذيولها	فقد أرغم المسك الذكيّ رغامها
وإن ما يست قضبان بانٍ رأيتها	تنكّس واستعلى عليها قوامها ^(٣١)

قال القفطي : وأنشدني أفضل الدين أميرك الزبياني له من قصيدة
فيها :

يفوح كفوح المسك فاغّم نشرها	إذا التحبت فيها ذلاذِلُ ريح
يقول لها الطش السماويّ والصبا	مقيماً على تلك الصبابة فوحي
مضاجع سعدان مغارس حنوة	مناجم قيصوم منابت شيح
إذا ملح المكاء رَجُعٌ صغيرة	يجأوبه قمريّتها بمليح
كأنّ بُديحاً والغريض تطارحا	على وترٍ للموصليّ فصيح ^(٣٢)

عقيدته :

أطبقت المصادر التي تعرّضت لترجمة المصنّف أنّه كان حنفيّ
المذهب معتزليّ العقيدة ، ويقال أنّه لما صنّف كتابه الكشاف استفتح
الخطبة بالحمد لله الذي خلق القرآن . فقليل له : متى تركته على هذه

(٣١) إنباء الرواة ٣ : ٢٦٧ .

(٣٢) إنباء الرواة ٣ : ٢٦٩ .

الهيئة هجره الناس فغيره بالذي أنزل القرآن ، وقيل : هذا اصطلاح الناس لا اصطلاح المصنف^(٣٣) .

يقول فيه الذهبي : « صالح ، لكنه داعية إلى الاعتزال ، أجارنا الله ، فكن حذراً من كشافه »^(٣٤) .

وقال ابن كثير : « وكان يظهر مذهب الاعتزال ، وبصرح بذلك في تفسيره وينظر عليه »^(٣٥) .

ويظهر أن الزمخشري كان يعتد بما يذهب إليه كثيراً ، فقد ذكر ابن العماد الحنبلي ما لفظه : « وكان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهراً به حتى نُقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول ، يقول لمن يأخذ له الإذن ، قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب »^(٣٦) .

إلا أن الأمير محمد حسين الحسيني الأصفهاني ذهب - على ما نقله عنه صاحب الروضات - إلى أن الرجل تشيع في أواخر حياته ، بدليل ما ورد في « ربيع الابرار » من نصوص تُشعر بهذا المعنى ، فقال : « فإنه لا ريب في كونه على مذهب أهل السنة والجماعة في مبادئ أمره ، كما يفصح عنه تصفّح الكشف ، فإنه سلك فيه مسلك الاعتساف في مسألة الإمامة وما يتعلّق بها ، ولذلك أجمعت الإمامية على كونه من العامة ولم يُجَوِّز أحد من العلماء استبصاره ورجوعه ، ولكنه لما اتفق لي مطالعة كتابه المسمى بـ « ربيع الابرار » وعثرت على كلام له صريح في

(٣٣) أنظر مرآة الجنان لليافعي ٣ : ٢٧٠

(٣٤) ميزان الاعتدال ٤ : ٧٨ .

(٣٥) البداية والنهاية ١٢ : ٢١٩ .

(٢٦) شذرات الذهب ٤ : ١٢١ .

التشيع لا يقبل التأويل ، ثم تصفحت وتفتحصت فيه عما يؤكد ذلك فظفرت على غيره من الشواهد مما لا يجتمع مع قواعد العامة وتأويلاتهم من نحو ذكره لفصائل السيد الحميري وأشعاره الرائقة في فضائل أهل البيت عليهم السلام»^(٣٧) ثم ذكر عدة موارد من الكتاب تأكيداً لما يذهب إليه .

وعلق السيد الخوانساري على الأبيات التي قالها في مدح آل النبي صلى الله عليه وآله قائلاً : «وفيه أيضاً من الدلالة على تشيع الرجل - ولو في آخر عمره - ما لا يخفى»^(٣٨) .

ولا نريد في هذه العجالة الخوض في لجج هذه المسألة ، بقدر ما قصدنا الإشارة إليها .

وفاته :

توفي الزمخشري بعد رجوعه من مكة المكرمة ليلة عرفة من سنة ٥٣٨ هـ في جُرجَانِيَّة خوارزم ، وهي بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة ، قال ياقوت : يقال لها بلغتهم كركانج ، وقد عُربت فقليل لها الجرجانية وهي على شاطئ جيجون .

وأوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات :

يا من يرى مدّ البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها	والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبدٍ تساب من فرطاته	ما كان منه في الزمان الأول

(٣٧) روضات الجنّات ٨ : ١٢٠ .

(٣٨) روضات الجنّات ٨ : ١٢٧ .

نحن والرسالة :

من الطريف أن كل من ترجم للزمخشري وذكر مصنفاته ، لم يذكر رسالتنا هذه ولم يتعرض لها ، مما يضيف على هذه الرسالة أهمية خاصة لا تخفى على المهتمين بالشأن التراثي ، إلا أن هذه الحقيقة تفتح الأبواب مشرعة أمام من يتساءل عن صحة نسبة الرسالة للزمخشري ، وجوابنا هو ما يلي :

١ - إن أسلوب كتابة الرسالة من المتانة اللغوية والبلاغية بمكان ، يكاد يقطع كل من يطالعها إلى أنها ترتقي بمستواها إلى أسلوب الزمخشري الرفيع .

٢ - توجد هناك مجموعة من التعابير المجازية المستخدمة في الرسالة وجدتها بالفاظها ومعانيها في كتاب «أساس البلاغة» للزمخشري وقد أشرت في الهامش لذلك ، وفي هذا من الدلالة ما لا يستهان به .

٣ - قول السائل في مقدمة الرسالة التي بعثها للمؤلف : «ساعات سيّدنا الإمام الزاهد الحبر العلامة جارا لله شيخ العرب والعجم» وقوله أيضاً : (بعد أن جشم خاطره في «الكشاف عن حقائق التأويل») يدلّ دلالة واضحة على أن مؤلف الرسالة هو الزمخشري صاحب الكشاف ، ويدلّ أيضاً على أن تأليفها كان بعد تأليف كتاب الكشاف ، ولعلّ هذا يفسّر عدم ذكر المصنّف لهذه الرسالة في تفسير سورة الكوثر في كتابه الكشاف .

منهج التحقيق :

اعتمدت في تحقيق الرسالة على نسخة واحدة قام باستنساخها سماحة العلامة المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي عن النسخة

المحفوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق في تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٨٣ هـ ، حيث تفضل عليّ بها مشكوراً ، والنسخة المذكورة كان قد نقلها محمد سعيد بن عمر كرامة عن نسخة موجودة في المكتبة العارفية في المدينة المنورة ، صدرها بقوله : «رسالة في إعجاز سورة الكوثر التي هي أقصر السور للعلامة الطائر الصيت جار الله الزمخشري» وتوجد في النسخة حواشي كتبها الناسخ ، نقلت منها في أربعة موارد فقط رامزاً لها بـ «هـ م» أي هامش المخطوط ، حفظاً للأمانة العلمية .

وحاولت جهد الإمكان أن أقدم نصّاً مضبوطاً للقارىء ، أقرب ما يكون لما تركه المؤلف على أنه لم تقع في يدي أكثر من نسخة واحدة ، وفي ذلك من المصاعب ما لا يخفى على أصحاب الخبرة في هذا الميدان ، فسعيت لتحقيق هذا الغرض بتخريج أغلب الألفاظ الصعبة من المعاجم اللغوية ، ولا يفوتني أن أشكر أخي الأستاذ أسد مولوي الذي استفدت من ملاحظاته في هذا المضمّر ، وترجمت لأغلب الأعلام الواردين في الرسالة ، وشرحت الأمثال التي أقحمها المؤلف في سياق كلامه مع ذكر مصادرها ، وتعرّضت لشرح المصطلحات البلاغية والكلامية كـ «الالتفات» و«الصرقة» متوخياً بذلك تبسيط النصّ ، وخرّجت النصوص الواردة من آيات وأحاديث وآثار ، ذيلت كلّ ذلك في هامش الكتاب الذي يعتبر ساحة عمل المحقّق ، ثم رتبت بعد هذا وذاك مجموعة فهارس فنية تعين المطالع على استخراج ما يحتاجه من كنوز الرسالة .

•• آملاً بعلمي هذا أن أكون قد قدّمت جهداً متواضعاً يصبّ في خدمة المكتبة الإسلامية ، ورافداً لمسيرتها المباركة ، بما هو نافع من تراثنا المعطاء ، والحمد لله ربّ العالمين .

حامد الخفاف

٢٠ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ

••

•

هذه الرسالة المعروضة إلى العلامة
الزمخشري من، بعض معاصريه التي كانت
رسالته الآتية جواباً عنها بياناً لما في ضمنها

••

بسم الله الرحمن الرحيم

ساعات سيّدنا الإمام الزاهد الحبر العلامة جابر الله شيخ العرب والعجم ، أدام الله إمتاع المسلمين ببقائه ، وإن كانت مقصورة على الاستعداد للمعاد ، مستغرقة في اتعاب خاطره الوقاد في فنون الاجتهاد ، لا يفتر طرفة عَيْن عن تصنيف ينفث فيه سحره ، ويلفظ للغوّاصين فيه درّه ، بعد أن جشّم خاطره في «الكشّاف عن حقائق التأويل» وأجال رؤيته في البحث عن وجوه التأويل ، مدبّياً في الفكر مطاياها ، متغلغلاً في علم البيان إلى زواياه وخباياه ، حتى ارتفع كتاباً ساطعاً بيانه ، جلياً برهانه ، مشحوناً بفوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يقصرها الاستقصاء ، لكنّه مع هذا يُتَوَقَّع من دينه المتين وفضله المبين أن يتصدق على معشر الداعين لأيامه ، الشاكرين لانهامه ، بالجواب عن اعتراضات تنزاح بسببه شبه المرتابين ، ليتوصّلوا بنتائج خاطره ، وبركات أنفاسه ، إلى ثلج الصدور وبرد اليقين ، والله تعالى وليّ توفيقه في ما يكسبه جزيل المثوبة في العقبى ، وحسن الاحدوثة في الدنيا إن شاء الله .

.. فمنها : سأل سائلٌ فقال : ذكرتُم أن لغة العرب لها من الفضيلة ما ليس لسائر اللغات ، فقلتم قولاً غفلاً ساذجاً من غير أن تشيروا إلى بيان وجه التفضيل ، وتبيّنوا الخواصّ التي لأجلها أحدث وصف الفضيلة والشرف ،

وتعدّوها فصلاً فصلاً ، وتشيروا إليها شيئاً فشيئاً ، وما أنكرتم على من قال لكم : إنّ لغة العرب وغيرها من اللغات المختلفة كالسريانية والعبرانية والهندية والفارسية كلّها على السواء ، لا فضيلة لبعضها على البعض ، وإنّما هي مواضع ورسوم واصطلاحات وضعت لأجيال الناس للإفهام والإعلام ، لتكون دلالات على المقاصد والأغراض .

وذكرتم أنّ في لغة العرب دقائق وأسراراً لا تنال إلاّ بجهد التأمل وفرط التيقّظ ، فلا يخفى أنّ هذه الأسرار والدقائق لا يمكن دعواها في الأسماء المفردة والأفعال المفردة والحروف المفردة ، وإنّما يمكن دعوى هذه الأسرار على تقدير ارتباط الكليم ، وجعل بعضها يتصل بسبب بعض وينتظم ، ومثل هذا موجود في كلّ لسان إذا ربطت بعض الكلم ببعض ، وراعت في ربطها الأليق فالأليق ، حصل لك المقرّر والمقصود ، وقارن في هذه القضية لغة العرب وغيرها من اللغات على السواء .

ومنها : أنّه لا يخفى أنّ القرآن سيّد معجزات رسولنا عليه الصّلاة والسّلام ، والعلم بكونه معجزاً علم ضروريّ ، ولكنّ الشأن في بيان إعجازه ، فمن قائل يقول وهو النّظام^(١) ومن تبعه : إنّ الآية والأعجزة في القرآن اختصاصه بالإخبار عن الغيوب بما كان ويكون ، ويمنع الله العرب

(١) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري ، أبو إسحاق النّظام ، من أئمّة المعتزلة ، تبحّر في علوم الفلسفة ، وأطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين ، وانفرد بآراء خاصّة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل ، تابعته فيها فرقة من المعتزلة ، سميت «النظاميّة» نسبة إليه ، أما شهرته بالنّظام فبعض يقول : إنّها من إجادته نظم الكلام ، وبعض يقول : إنّّه كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، توفي سنة ٢٣١ هـ .

أنظر «أمالي المرتضى» ١ : ١٣٢ ، تاريخ بغداد ٦ : ٩٧ ، الملل والنحل ١ : ٥٦ ، سفينة البحار ٢ : ٥٩٧ ، الأعلام ١ : ٤٣ .

جار الله الزمخشري ٣١

أن يأتوا بمثله . قال : وأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله تعالى منعهم وأعجزهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم .

ومن قائل يقول : وجه الإعجاز في القرآن أنه أسلوب من أساليب الكلام ، وطريقة ما عهدتها العرب ولا عرفوها ، ولم تكن مقدورة لهم .

ومن قائل يقوله : وجه الإعجاز فيه علمنا بعجز العرب العاربة عن أن يأتوا بمثله ، وتركهم المعارضة مع تكرار التحدي عليهم وطول التقريع لهم ، فإذا عجز العرب عن ذلك فنحن أولى بالعجز .

ومن قائل يقول : وجه الإعجاز فيه هو ما اختص به من الفصاحة والبلاغة التي بهرهم عند سماعها ، وطأطأوا رؤوسهم عند طروقها ، وعليه الأكثرون .

فإن عسى اعترض المعترض وقال :

ماذا أعجزهم ؟ وماذا أبهرهم ؟ ألفاظ القرآن أم معانيه ؟ ! إن قال : أردت الألفاظ مع شيء منهما لا يجب فضل البتة على تقدير الانفراد ، لأن الألفاظ [لا] تُراد لنفسها ، وإنما تُراد لتجعل دلالات على المعاني ، ولأن الألفاظ التي نطق بها القرآن ليست إلا أسماء وأفعالا وحروفاً مرتباً بعضها ببعض ، ويستعملونها في مخاطباتهم ، وكذلك الجمال المنظومة .

وإن قال : أعجزهم المعاني . يقال له : أليس انهم كانوا أرباب العقول وأهل الحجى ، يدركون غوامض المعاني بأفهامهم ، ولهم المعاني العجيبة ، والتمثيلات البديعة ، والتشبيهات النادرة .

وإن قال : بهرهم النظم العجيب . يقال له : أليس معنى النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وهي الأسماء والأفعال والحروف ، ومعرفة

طرق تعلقها ، كتعلق الاسم بالاسم ، بأن يكون خبراً عنه أو صفةً له أو عطف بيان منه ، أو عطفاً بحرف عليه ، إلى ما شاكله من سعة وجوهه ، وكتعلق الاسم بالفعل ، بأن يكون فاعلاً له ، أو مفعولاً ، إلى سائر فروعها واتباعه ، وكتعلق الحرف بهما كما هو مذكور في كتب النحو ، وهم كانوا يعرفون جميع ذلك ، وكانوا يستعملونه في أشعارهم وخطبهم ومقاماتهم ، ولو لم يعرفوا وجوه التعلق في الكلم ، ووجوه التمثيلات والتشبيهات ، لَمَا تَأَتَّى لَهُم الشعر الذي هو نفث السحر .

فحين تَأَتَّى لَهُم ذلك ، ومع هذا عجزوا عن المعارضة ، دَلَّ على أَنَّ الله تعالى أحدث فيهم عجزاً ومنعاً .

قال : ولأنَّ الإعجاز في القرآن لو كان لمكان اختصاصه بالفصاحة والبلاغة لنزل القرآن من أوله إلى آخره في أعلى مراتب الفصاحة ، ولكان كَلَّه على نسق قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ . . .﴾^(٢) . وليس كَلَّه نَزَلَ على هذا النسق ، بل فيه ما هو في أعلى مراتب الفصاحة كما ذكرنا ، وما هو دونه كقوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهُبٍ وَتَبَّ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ .

ولأنَّ الحال لا تخلو إمَّا أَنْ يقال لا رتبة في الفصاحة أعلى من رتبة القرآن ، كما ذهب إليه بعض أهل العدل ، فقالوا : لو كان في المقدور رتبة أعلى منها لأنزل الله سبحانه وتعالى عليها القرآن ، إذ لا يحسن أن يقتصر المكلف على أدنى البيانين مع قدرته على أعلاهما ، ولأنَّ في أعلى البيانين وجه الدلالة على صدق الرسول أقوى .

وإِذَا أَنْ يُقَالَ : بَأَنَّ الْقُرْآنَ وَإِنْ كَانَ فَصِيحاً بَلِيغاً ففِي مَقْدُورِ اللَّهِ تَعَالَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ مَرْتَبَةً فِي الْفَصَاحَةِ . فَيَقُولُ الْمُعْتَرِضُ فَهَلَّا أَنْزَلَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْفَصَاحَةِ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَهَا مَتْنَهِي .

قَالَ : فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَمْدَةَ فِي الْإِعْجَازِ لَيْسَ اخْتِصَاصُهُ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لَكِنْ عَجَزَ وَمَنَعَ أَحَدُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِالْمَعَارِضَةِ .

وَمِنْهَا : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ مَا عَلِمَ أَنَّ حَاجَةَ الْخَلْقِ تَمَسُّ إِلَيْهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، لَا جَرَمَ بَذَلَ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ مَجْهُودَهُمْ ، وَاسْتَفْرَغُوا فِيهِ جَهْدَهُمْ وَوَسْعَهُمْ ، فَأَهْلُ الْكَلَامِ - خُصُوصاً أَهْلُ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ - اسْتَظْهَرُوا فِي مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ بِالْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِيهِ عَلَى صِحَّةٍ مَا اعْتَقَدُوهُ ، وَعَلَى [إِبْطَالِ] مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ وَفَسَادِ مَا انْتَحَلُوا .

وَأَهْلُ الْفَقْهِ غَاصُوا فِي بَحُورِ النُّصُوصِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْهَا الْمَعَانِي وَفَرَعُوا الْأَحْكَامَ عَلَيْهَا .

وَأَهْلُ التَّأْوِيلِ خَاضُوا فِي مُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا ، وَمَجْمَلِهَا وَمَفْصَّلِهَا ، وَنَاسَخِهَا وَمَنْسُوخِهَا .

وَأَهْلُ النُّحُوبِ سَطَّوْا الْكَلَامَ فِي تَصَانِيفِهِمْ بَسْطاً فَكُلُّ أَنْفَقَ عَلَى قَدَرِ مَا رَزَقَ ، ثُمَّ لَمْ يَبْلُغْنَا عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ شَمَّرَ ذَيْلَهُ وَأَدْرَعَ لَيْلَهُ^(٣) فِي بَيَانِ وَجْهِ الْإِعْجَازِ عَلَى التَّفْصِيلِ سُورَةَ فَسُورَةَ وَآيَةً فَآيَةً ، فَابْتَدَأَ مِثْلًا بِفَاتِحَةِ

(٣) يُقَالُ : «شَمَّرَ ذَيْلاً وَأَدْرَعَ لَيْلاً» أَيِ اسْتَعْمَلَ الْحَزْمَ وَاتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلاً . «الصَّحَاحُ - دَرَعُ -

الكتاب فكشف عن وجه الإعجاز في ثلاث آيات منها ، ثم ترقى إلى ثلاث آيات أخر فكشف عنها أيضاً وجه الإعجاز إلى أن ينتهي إلى آخرها ، مع شدة الحاجة إلى ذلك في كل زمان ، إذ حجة الله تعالى قائمة ، ومعجزته على وجه الدهر باقية .

وكذلك لم ينقل أنهم صَنَّفُوا في هذا الباب على هذا الوجه تصنيفاً مع تهالكهم وولوعهم ، والعجب أنهم صَنَّفُوا في حُلِيِّ الصحابة والتابعين وهيئاتهم ، فذكروا الطوال منهم والقصار ، ومن ابتلي منهم بالعمى والعور والعرج والعجمة والزمانة والشلل ، مع أن بالخلق مندوحة وغنية عن ذلك .

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ^(٤) صَنَّفَ كتباً في الجَدِّ والهزل تكاد لا تُعدّ ولا تحصى ، فصَنَّفَ كتاباً سَمَّاه «القَعْرَةَ والشَّفِرَةَ»^(٥) وآخر سَمَّاه «مفاخرة الشتاء والصيف» إلى أشباه هذا كثيرة ، صعد فيها

(٤) عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ : كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ولد سنة ١٦٣ هـ ، وكان مشوّه الخلقة ، وفلج في آخر عمره ، له تصانيف كثيرة ذكرت في مظان ترجمته ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه ، مات في البصرة سنة ٢٥٥ هـ .

أنظر «تأريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ ، وفيات الأعيان ٣ : ٥٠٦/٤٧٠ ، لسان الميزان ٤ : ١٠٤٢/٣٥٥ ، ميزان الاعتدال ٣ : ٦٣٣٣/٣٤٧ ، شذرات الذهب ٢ : ١٢١ ، الأعلام ٥ : ٧٤» .

(٥) إمراة قَعْرَة وقَعيرة : بعيدة الشهوة ؛ عن اللحياني ، وقيل : هي التي تجد الغُلمة في قعر فرجها ، وقيل : هي التي تريد المبالغة ، وقيل : نعت سوء في الجماع ونسب نعر - قعر - ٥ : ١٠٩» .

والشَّفِرَة والشَّفيرة من النساء : التي تجد شهوتها في شفرها فيجيء ماؤها سريعاً . وقيل : هي التي تقنع من النكاح بأيسره ، وهي نقيض القعيرة «لسان نعر - شفر - ٤ : ٤١٩» .

وصوب ، وشرق وغرب ، وحشاها بما لا حاجة للخلق فيه إلى معرفته ،
ثم لما آل الأمر إلى بيان وجه الإعجاز على التفصيل آية فآية وسورة
فسورة ، ضمّ شفتيه ضمّاً ، وختم على لسانه ختماً ، فلم ينبس بكلمة أو
كلمتين ، ورضي من الغنيمة بالإياب^(٦) .

وإذ صَحَّ أن السلف رحمهم الله مع تقدّم الخواص منهم في علم
البيان ، والتبحّر في الإحاطة بحقائق المعاني ، وصدّق رغبتهم في إحراز
الثواب ، وحاجتهم إلى أن يكون لهم لسان صدّق في الآخرين ممّر
الأحقاب ، لم يشتغلوا ببيان الإعجاز على التفصيل في كلّ آية منه ، بل
أعرضوا عن ذلك بواحدة مع أنهم أشاروا إلى ذلك على سبيل الإجمال ،
والحال لا تخلو إمّا أن يقال خَفِيَ عليهم وجه الإعجاز على التفصيل على
هذا الوجه ، فلم يَقْفُوا عليه ولم يهتدوا إليه أو لا . فإن قيل : خَفِيَ عليهم
ولم يقفوا عليه ولم يجدوا طريقاً إليه . فيقال : إذن مؤنة البحث والتنقيب
عنهم ساقطة ، ووجوه العذر لهم في الإعراض عن ذلك ظاهرة .

ولئن لم يَخَفَ عليهم فَلِمَ لَمْ يصرفوا معظم همّهم إلى هذا الأمر
العظيم ، والخُطْبُ الجسيم ، فيصنّفوا ويشرحوا كما صنّفوا في فروع
الأحكام من الحلال والحرام ، وصنّفوا في فروع الكلام ، فلم يبقَ إلّا أن
يقال : أحدث في الكلّ منعاً منعهم عن ذلك لمصلحة رآها فيه .

فهذه عدّة أسئلة فليتنفّضلّ أدام الله علوّه بالإجابة عنها ، والله يعصمه

(٦) مثل سائر ، أول من قاله امرؤ القيس بن حجر في بيت له ، وهو :

وقد طَوَّفْتُ في الأفاق حتى رَضِيت مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

يضرب عند القناعة بالسلامة ، «مجمع الأمثال ١ : ٢٩٥ / ١٥٦٠» .

٣٦ إعجاز سورة الكوثر

من الخطأ والزلل ، ويوفقه لإصابة القول والعمل ، إنه على ما يشاء قدير
تمّت .

بسم الله الرحمن الرحيم

نَمَّتْ يَدُ الْأَخِ فِي اللَّهِ الْإِمَامَ الصَّمْصَامَ زَادَهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ طَمَأْنِينَةً وَثَلَجًا^(٧) ، وَفِي مَوَاقِفِ الْجَدَلِ فَوْزَةً وَفَلَجًا^(٨) صَحِيفَةً قَدْ احْتَبَى فِي تَجْوِيدِهَا وَتَرْبَعٍ ، وَتَبَدَّعَ فِي إِنْشَائِهَا وَتَبَرَّعَ ، وَلَمْ يَأْلَهَا تَمْلِيحًا وَتَرْشِيحًا ، وَمَا أَذْخَرَ عَنْهَا تَوْشِيحًا وَتَطْوِيحًا ، وَخَرَجَ سَوَالَاتٍ لَوْصَكَ بِهَا ابْنُ الْأَهْتَمِ لَهُتَمَتِ أَسْنَانُهُ^(٩) ، أَوْ ابْنُ الْمُقَفَّعِ^(١٠) لَقَفَعَتْ بَنَانُهُ ، أَوْ ابْنُ الْقِرْيَةِ^(١١) لَبَقِيَ

(٧) يقال : ثَلَجَتْ نَفْسِي بِالْأَمْرِ تَثْلُجُ تَثْلُجًا ، وَثَلَجَتْ تَثْلُجُ ثُلُوجًا إِذَا اطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ وَسَكَنْتَ ، وَثَبَّتَ فِيهَا وَوَثَقَتْ بِهِ «النهاية - ثلج - ١ : ٢١٩» .

(٨) الفالَج : الغالب أو المنتصر ، أَنْظِرْ «النهاية - فلج - ٣ : ٤٦٨» .

(٩) صَكَّهُ ضَرْبُهُ شَدِيدًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ، وَابْنُ الْأَهْتَمِ هُوَ عَمْرُو بْنُ سَنَانَ الْأَهْتَمِ ، وَإِنَّمَا لَقِبَ أَبُوهُ سَنَانُ بِالْأَهْتَمِ لِأَنَّهُ هُتِمَتْ ثَنِيَّتُهُ يَوْمَ الْكَلَابِ أَيْ كَسَرَتْ ، يُقَالُ : هَتَمْتُ الشَّيْءَ إِذَا كَسَرْتَهَا ، وَهَتَمْتُ هِيَ إِذَا انْكَسَرَتْ .

وعمرُو هذا من آكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام وهو بليغ القول ، فصيح العبارة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسَجْرًا» لَمَّا سَمِعَ مِنْهُ مَا قَالَهُ فِي حَقِّ الزُّبَيْرِ بْنِ بَدْرٍ . أَنْظِرْ شَرْحَ رِسَالَةِ ابْنِ زَيْدُونَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ : (وعمرُو بن الأهتَمِ إِنَّمَا سَحَرُ بَيَانِكَ) . «هـ» .

(١٠) عبدالله بن المقفع : من أئمة الكتاب ، وأول من عنى في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، ولد في العراق مجوسياً ، وأسلم على يد عيسى بن علي (عمّ السفاح) ، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع ، واتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلب سنة ١٤٢ هـ ، وأما المقفع أبوه فاسمه المبارك ، وَلُقِّبَ بِالْمُقَفَّعِ لِأَنَّ الْحِجَاجَ ضَرْبَهُ فَتَقَفَّعَتْ يَدُهُ أَيْ تَشَنَّجَتْ .

أَنْظِرْ «أُمَالِي الْمُرْتَضَى ١ : ٩٤ ، لِسَانُ الْمِيزَانِ ٣ : ٣٦٦ ، الْأَعْلَامُ لِلزُّرْكَانِيِّ ٤ : ١٤٠» .

(١١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زُرارة الهلالي : أَحَدُ بُلْغَاءِ الدَّهْرِ ، خَطِيبٌ يَضْرِبُ بِهِ =

خابطاً في مرية^(١٢) ، وإن أفرغ صماخ قريته^(١٣) ، وهكذا جحاجة العرب ، لا تتخطاهم في رَشَقِ أصابه ، ولا تُسقط لنازعهم في قوسِ نَشَابِه^(١٤) .

وسألني الإجابة عن تلك السؤالات بنظم رسالة من أبلغ الرسالات ، تَقَع من السائل موقع الفُرات^(١٥) من الحَرَّان^(١٦) ، وتَنَزِل منه منزلة السداد من الحَيْرَان ، وكرَّر الطلبَ وردد ، وألَح فيه وشدد ، وضيقَ عَلَيَّ الأمر وعَوَّصه ، وقال : أنت الذي عيَّنه الله وشخَّصه ، حتَّى لم أجد بداً من

= المثل ، يقال : «أبلغ من ابن القرية» والقرية جدنه ، قتله الحجاج سنة ٨٤ بعد أن أسره في وقعة دير الجماجم بعد أن قال له : والله لأزيرنك جهنم ! قال : فأرحني فأني أجد حرَّها ! فأمر فضربت عنقه . ولما رآه قتيلاً قال : لو تركناه حتَّى نسمع كلامه . وأخباره كثيرة .

أنظر «وفيات الأعيان ١ : ١٠٦/٢٥٠ ، الكامل في التاريخ ٤ : ٤٩٨ ، الأعلام ٢ : ٣٧» .

(١٢) المراء : الجدال ، والتماري والمارة : المجادلة على مذهب الشك والريية «النهاية - مرا - ٤ : ٣٣٢» .

(١٣) أفرغ : صب ، وصماخ ككتاب : الاذن ، وكخراب : الماء ، وقرية : الحوصلة . والمراد بها ما اشتهر به من البلاغة حتَّى صارت له كالعلم ، كما صار اسم حاتم للكرم ، والتفسير عليها دون القرية واحدة القرى ، ودون القرية سقاء الماء واللبن ، أي وإن صبَّ اذن حافظته ، أو امتنزف ماء قريحته ، كناية عن إجهاد نفسه في البيان ، وخنق فرسه في الميدان ، فهذه الأسئلة إن قرعت له سمعاً يضيق بها ذرعاً ، ويبقى خابطاً في الشك والجدل ، لا حول له بها ولا حيل . «هـ م» .

(١٤) لا تسقط أي لا تخطيء ، ونزع القوس مذهباً ، ونشابه أي نبله ، أي هذه السؤالات كما يقصر عنها المذكورون من أئمة الأدب فإنها تصيب بلاغة سادات العرب ، ولا تخطيء نبل متقوسهم في ارب . «هـ م» .

(١٥) الفُرات : أشد الماء عذوبة «لسان العرب - فرت - ٢ : ٦٥» .

(١٦) الحَرَّان : العطشان «مجمع البحرين - حرر - ٣ : ٢٦٤» .

إجابته إلى ما أراد ، وإسعافه بما أبدأ فيه وأعاد .

وكان أمثل الأمرين أن ألجم نفسي وأحجرها ، وأن ألقمها حجرها ، ولا أفغر بمنطق فماً ، ولا أبلّ بجواب قلماً ، وليس بين فكّي لسان دافع ، وليس في ماضغيّ ضرس قاطع ، ولا بين جنبيّ نفس حركة نشيطة ، ولكنّ حردة^(١٧) مُستشيطة ، لِمَا أنا مفجوع به من مفارقة كلّ أخٍ كان يسمع مِنّي الكلمة الفذّة فيضعها على رأسه ، ويَعْضُّ عليها بأضراسه ، ويتقبلها بروحه ، ويلصقها بكبده ، ويجعلها طوقاً في أعلى مُقلّده ، ويُسكنها صميمَ فؤاده ، ويخطّها على بياض ناضره بسواده ، لولا خيفة أن تسوّل له نفسه أنني أقلتُ الاكتراث بمراسلته ، وأخللتُ الاحتفال بمسألته ، وأنّ يقول بعض السمعة - ممّن يحسب لساني لسان الشمعة - : أقسم بالله قَسَماً ما وجدَ في ديسم^(١٨) دَسَماً ، فمن ثمّ ضَرَبَ عنه صفحاً ، وطوى عنه كشحاً ، ولم يولِه لمحة طرف ، ولم ينطق في شأنه بحرف .

أما العرب فقد صَحَّ أن لُغتها أصحّ اللغات ، وأنّ بلاغتها أتمّ البلاغات ، وكلّ من جمَحَ في عنان المناكرة ، وركبَ رأسه في تيه المكابرة ، ولم يرخِ للتسليم والإذعان مشافره^(١٩) فما أفسد حواسّه ومشاعره ! وهو ممّن أذن بحرب منه لعقله الذي هو إمامه في المرأشد ،

(١٧) يقال : حَرَدَ الرجل حُروداً إذا تحوّل عن قومه وانفرد . أنظر «النهاية - حرد - ١ : ٣٦٢» .

(١٨) الديسم : بالفتح ولد الدبّ ، قال الجوهري : قلت لأبي الغوث : يقال إنّه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلّا ولد الدبّ ، وقال في المحكم : إنّه ولد الثعلب . وقال الجاحظ : إنّه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون وغبرته ممترجه بسواد ، وحكمه تحريم الأكل على كلّ تقدير . «الحيوان ١ : ٣٤٣» .

(١٩) الشُفر : بالضم ، وقد يفتح ، حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر «النهاية - شفر - ٢ : ٤٨٤» .

ولتمييزه الذي هو هاديه إلى المقاصد .

إعلم يا من فُطِرَ على صلابة النبع ، وأمدَّ بسلامة الطبع ، ووفَّقَ للمشى في جادة العدل والإنصاف ، وعَصِمَ من الوقوع في عاثور الجور والاعتساف ، فإنَّ واضع هذا اللسان الأفصح العربي من بين وُضَاع الكلام ، إنَّ لم يكن واضعه رافع السماء وواضع الأرض للأنام ، فقد أخذ حروف المُعْجَم التي هي كالمادة والعنصر ، وبمنزلة الإكسير والجوهر ، فعجَمَهَا مبسوطاتٍ فرائد ، ودَافَهَا^(٢٠) الواحد فالواحد ، وَتَقَلَّقَتْ في يده قبل التاليف ، تقلقل الدنانير في أيدي الصياريف^(٢١) ، حين تراهم ينفون زيفها وبهرجها^(٢٢) ، ويصطفون إبريزها وزبرجها ، فتخيَّر من بينها أطوعها مَخارج ، وتنخل منها أوطأها مدارج ، وميَّز أسلسها على الأسَلات^(٢٣) ، وأعذبها على العَذبات^(٢٤) ، وأحلاها في الذوق وأسمحها ، وأبهاها عند

(٢٠) داف الشيء دَوْفًا وأدافه : خلطه «لسان العرب - دوف - ٩ : ١٠٨» .

(٢١) لم يرد جمع الصيرفي أي النقاد على هذه الصيغة إلا في الشعر قال ابن منظور : «الجمع صيارف وصيارفة ، والهاء للنسبة ، وقد جاء في الشعر الصيارف ، فأما قول الفرزدق :

تنفى يداها الحصى في كلِّ هاجرةٍ نفى الدراهم تنقاد الصياريف

فعلى الضرورة لما احتاج إلى تمام الوزن أشبع الحركة ضرورة حتى صارت حرفاً .
وقال الفيروز آبادي : «وقد جاء في الشعر صياريف» ولعلَّ ما أورده الزمخشري تبعاً لاقتضاء سجع العبارة ظاهراً ، أنظر «لسان العرب ٩ : ١٩٠ ، القاموس المحيط ٣ : ١٦٢ ، مادة صرف» .

(٢٢) البَهْرَجُ : الباطل ، واللفظة معربة . وقيل : كلمة هندية أصلها نيهله ، وهو الردىء ، فنقلت إلى الفارسية ، فقليل نبهره ، ثم عُرِّبَتْ فقليل : بَهْرَجَ . «النهاية - بهرج - ١ : ١٦٦» .

(٢٣) الأسلات : جمع أسلة ، وهي طرف اللسان «النهاية - أسل - ١ : ٤٩» .

(٢٤) عَذْبَةُ اللسان : طرفه ، والجمع «عَذْبَات» كقصبة وقصبات . «مجمع البحرين - عذب - ٢ : ١١٧» .

السَّبر وأملحها ، وأبعدها من مجّ الأسماع ، وأقربها امتزاجاً بالطباع ، وأوقعها لفحول الأمة الناعمة بأجراسها ، وأحسنها طباقاً لطرق أنفاسها .

ولما انتقل من انتقاء وسائطها ، بعد انتقاد بسائطها ، إلى أن يؤلف ويركّب ، ويرصّف ويرتّب ، عمد في عمل التراكيب إلى أشرف الأنماط والأساليب ، فألف أنماطاً تستهش^(٢٥) أنفس الناطقين ، وكلمات تتحلّب^(٢٦) لها لُهي^(٢٧) الذائقين ، وتجول في فجوات الأفواه ، فتتمطّق^(٢٨) بها مستلذات ، ويطلق بها الآذان فتتهوي بها مغذّات^(٢٩) ، وما طنت على مسامع أحد من أجيال الأعاجم ، وأخياف الطماطم^(٣٠) إلا أصغى إليها متوجّساً ، وأصاخ لها مستأنساً ، وأناس^(٣١) فوديه^(٣٢) مستعجباً ، وأمال عطفيه مستغرباً ، وقال : ما هذا اللسان المستلذ على الصمّاخ^(٣٣) إيقاعه ، المُحلّولى في مخارق الآذان استماعه ، المفارق

(٢٥) يقال : استهشني أمر كذا فهششت له أي استخفني فخففت له «لسان العرب - هشش -

٣٦٤ : ٦

(٢٦) تحلّب العرق وانحلب أي سال «الصحاح - حلب - ١ : ١١٥ .

(٢٧) جمع لهاة ، وهي اللحيات في سقف أقصى الفم «النهاية - لها - ٤ : ٢٨٤ .

(٢٨) يقال : ذاقه فتمطّق له إذا ضمّ شفّتيه إليه وألصق لسانه بنطع فيه مع صوت «أساس البلاغة : ٤٣٢» .

(٢٩) مغذّات : مسرعات .

(٣٠) أخياف أي مختلفون ، والطماطم جمع طمطم ، وهو الذي في لسانه عجمة لا يفصح .

أنظر «أساس البلاغة - خيف - ١٢٤ ، الصحاح - طمم - ٥ : ١٩٧٦» .

(٣١) ناس الشيء ينوس نوساً ونوساناً : تحرّك وتذبذب متديلاً . «لسان العرب - نوس -

٢٤٥ : ٦

(٣٢) القودّ : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن ، وفوداً الرأس جانباه «لسان العرب - فود -

٣٤٠ : ٣

(٣٣) صمّاخ الأذن بالكسر : الخرق الذي يفضي إلى الرأس ، وهو السميع ، وقيل هو الأذن

نفسها «مجمع البحرين - صمخ - ٢ : ٤٣٧» .

لجميع اللغات والألسنة ، المَصُون من الحروف الملكة .

وما ذاك إلا لأنَّ حكمَ المسموعات حكم المبصرات والممسوسات ، وغيرها من سائر المحسوسات ، فكما أنَّ الأعين فارقة بين المناظر العثاث والمِلاح ، والأوجه القباح والصباح ، والأنوف فاصلة بين الأعططار الفوائح ، وبين مستكرهات الروائح ، والأفواه مميّزة بين طعوم المأكَل والمشارب وبين المستبشعات منها والأطائب ، والأيدي مفرزة لِمَا استلانت ممّا استخشنت ، ولِمَا استخفّت ممّا استرزنت^(٣٤) ، كذلك الأذان تعزل مستقيمات الألحان من عوجها ، وتعرف مقبول الكلام من ممجوجها ، والألسن تنبسطُ إلى ما أشبه من الكلام مجاج الغمام^(٣٥) ، وتنقبضُ عمّا يُشاكل منه أجاج^(٣٦) الجِمَام^(٣٧) ، وهذه طريقة عاميّة يسمّعها ويبصرها ويسلّمها ولا ينكرها من يُرى به شيء من طرف ، أو يرامق^(٣٨) بأدنى عرف .

وأما الطريقة الخاصيّة التي تضمحلّ معها الشُبّه ، ويسكت عندها المنطيق المفوّه ، فما عني بتدوينه العلماء ، ودأب في تضييفه العظماء ، في ألفاظ العربيّة وكَلِمَها ، من بيان خصائصها ونوادر حِكَمِها ، ممّا يتعلّق بذواتها ، ويتّصل بصفاتها ، من العَلَمَين الشريفين ، والعَلَمَين المنيفين ،

(٣٤) رزنت الشيء أرزنه رزناً ، إذا رفعته لتنظر ما ثقله من خفّته ، وشيء رزين أي ثقیل «الصحاح - رزن - ٥ : ٢١٢٣» .

(٣٥) مُجَاج الغمام : مطره . أنظر «لسان العرب - مجج - ٢ : ٣٦٢» .

(٣٦) ماء أجاج أي ملح ؛ وقيل : مرّ ، وقيل : شديد المرارة ؛ وقيل : الأجاج : الشديد الحرارة . «لسان العرب - أجج - ٢ : ٢٠٧» .

(٣٧) الجَمّة : المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ، والجمع الجِمَامُ . «الصحاح - جم - ٥ : ١٨٩٠» .

(٣٨) رمقه بعينه رمقاً : أطال النظر إليه «مجمع البحرين - رمق - ٥ : ١٧٣» .

جار الله الزمخشري ٤٣

وهما علم الأبنية وعلم الإعراب ، المشتعلان على فنون من الأبواب ،
وناهيك بكتاب سيبويه^(٣٩) الذي هو الكتاب ، يُطلق فلا تضلّه الألباب ،
وهو الديوان الأقدم ، والميزان الأقوم ، والقانون الذي هو لكل محتدٍ
مثال ، والمَعْقِل الذي لكل منضو تمثال ، وكأنّه الرأس الذي هو رئيس
الأعضاء ، والراز^(٤٠) الذي بيده مِطْمَر^(٤١) البناء ، والإمام الذي إن نزلت
بك شُبْهة أنزلتها به وإن وقعت بك مُعضلة أوردتها على بابه ، والحكمة
التي قيدت بها الفلاسفه فهي حَاجِلَة^(٤٢) فرَاسِفَه^(٤٣) .

حشا غامضاتٍ سيبويه كتابه وأحرٍ بأن تعاص تلك وتشتدّا
إذا وقع الأحبار فيها تحيروا فلم يجدوا من مرجع القهقري بدا
آخران :

ألا صلّى المليك صلاة صدّق على عمرو بن عثمان بن قنبر

(٣٩) هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، مولى بني الحارث ، يكنى أبا بشر وأبا الحسن ، الملقب
بـ «سيبويه» ومعناه بالفارسية : رائحة التفاح ، ولد في إحدى قرى شيراز ، وقدم البصرة
فلزم الخليل بن أحمد فقاقه ، وصنّف كتابه المعروف بـ «كتاب سيبويه» في النحو ، لم يُصنع
قبله ولا بعده مثله ، توفي سنة ١٨٠ هـ ، وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلاف .
أنظر «انباء الرواة ٢ : ٥١٥/٣٤٦ ، وفيات الأعيان ٣ : ٥٠٤/٤٦٣ ، تأريخ
بغداد ١٢ : ١٩٥/٦٦٥٨ ، الأعلام ٥ : ٨١» .

(٤٠) الراز : رأس البنائين «النهاية - روز - ٢ : ٢٧٦» .

(٤١) المِطْمَرُ : الزيج الذي يكون مع البنائين «الصحاح - طمر - ٢ : ٧٢٦» .

(٤٢) الحَجَل والحِجَل : القيد ، يفتح ويكسر ، والحَجَل : مشي المُقَيّد ، وَحَجَلٌ يُحْجَلُ حَجَلًا
إذا مشى في القيد «لسان العرب - حجل - ١١ : ١٤٤» .

(٤٣) الرُسْفُ : مَشْيُ المُقَيّد ، ورسف في القيد : مشى مشي المُقَيّد ، وقيل : هو المشي في القيد
رويداً ، فهو راسف «لسان العرب - رسف - ٩ : ١١٨» .

فإن كتابه لم يَغْنِ عنه بنو قلم ولا أبناء منبر

ثم لا تسأل عن تناسق هذه اللغة وتاليها ، وعن تجاذب أطرافها وتجليها ، وما ينادي عليه طرق اشتقاقها من حسن تلاؤمها واتفاقها ، يصادف المشتق الصيغ متناصرة ، آخذاً بعضها بيد بعض متخاصره ، ووراء ذلك من الغرائب ما لا يتزف وإن نزف البحر ، ومن الدقائق ما لا يدق معه الكهانة والسحر ، ولا يعرف ذلك إلا من فقه فيها وطب^(٤٤) ، وزاولها مذ شبت إلى أن دب ، وضرب أباطها^(٤٥) ، حتى بلغ نياطها^(٤٦) .

ولا أذكر لك ما في كلام فصحاءهم ، من خطبائهم وشعرائهم ، من طرق فصاحة انتهجوها ، وخيل بلاغة أجموها وأسرجوها ، وما وجد في مراكضهم ومضاميرهم ، من سبقهم ومحاضيرهم ، من الافتنان في بابي الكناية والمجاز ، وإصابة مواقع الإشباع والإيجاز ، والإبداع في الحذف والإضمام ، والاعراب في جملة اللطائف والأسرار ، فإنك تعارضني بأن هذه الأشياء أشرك الله فيها العقلاء ، ورأينا الأعاجم قد صنّفوا فيها معاجم ، فكم في الفرس من الفرسان ، وما أهل خراسان بالخرسان ،

(٤٤) رجل طبّ بالفتح ، أي عالم «الصحاح - طب - ١ : ١٧١» .

(٤٥) من المجاز قولهم : نزل بإبط الرمل ، وهو مسقطه ، وإبط الجبل ، وهو سفحه ، وضرب أباط المفاضة ، وتقول : ضرب أباط الأمور ومغابنها واستشف ضمائرهما وبواطنها «أساس البلاغة - أبط - ١» .

(٤٦) النّوط : عرق غليظ علّق به القلب من الوتين ، قال أبو طالب في رسول الله صلى الله عليه وآله :

بنيّ أخي ونوط القلب منّي وأبيض ماؤه غدق كثير

ومن المجاز : مفاضة بعيدة النياط أي الحد والمتعلق ، ولا يخفى ما في المتن من تعبير مجازي ، أنظر «أساس البلاغة - نوط - ٤٧٦» .

على أنني لو قلت تلك^(٤٧) لوجدت مقالاً ، وصادفت لفرسي مجالاً ، ولأصبت فيه وجهاً من الاحتجاج ، ورداً للشغب والللجاج ، فإن هذه الأشياء لا تجميل ولا تجزل ولا تنبل ولا تفحل ، ولا تحسن ولا تبهى ، ولا تختال ولا تزهى ، إلا واقعة في هذا اللسان ، دائرة بين أظهر هذا البيان .

ومثل ذلك مثل الوشي الفاخر ، والحلي من سريّ الجواهر ، تلبسها الحسناء فتزيدها حسناً إلى حسن ، وتعطيها زيناً إلى زين ، فإن نقلتها إلى الشوهاء تخاذل أمرها وتضاد ، وتناقض وتراود ، وعصف بنصف حسنها وزينها ، ما تطلعه الشوهاء من قبحها وشينها ، وكفاك بما عدت عليك أدلة متقبلة ، وشهوداً معدلة ، على أن هذا اللسان هو الفائز بالفصل ، الحائز للخصل^(٤٨) ، وأن ما عداه شبه^(٤٩) إلى العسجد ، وشب^(٥٠) إلى زبرجد .

ثم اسمع بفضلك ، فقد آن أن أفذك^(٥١) ، وأختتم هذا الفصل بما يحلق الحلاق^(٥٢) ويجزر الغلاصم^(٥٣) . وهو أن الله تعالى ادّخر لمحمد

(٤٧) الكلمة قلقة في هذه العبارة .

(٤٨) يقال : أصاب خصله واحرز خصله : غلب على الرهان ، وقال بعضهم : الخصلة الإصابة في الرمي «لسان العرب - خصل - ١١ : ٢٠٦» .

(٤٩) الشبه والشبه : النحاس الأصفر ، أنظر «لسان العرب - شبه - ١٣ : ٥٥» .

(٥٠) الشب : حجر معروف يشبه الزاج ، وقد يدبغ به الجلود «النهاية - شب - ٢ : ٤٣٩» .

(٥١) يقال : فذلك حسابه أنها وفرغ منه ، «القاموس المحيط - فذلك - ٣ : ٣١٥» .

(٥٢) الحلقوم : الحلق ، وقال الزجاج : الحلقوم بعد الفم وهو موضع النفس وفيه شعب تتشعب منه ، وهو مجرى الطعام والشراب «المصباح المنير - حلق - ١٤٦» .

(٥٣) الغلصمة : رأس الحلقوم بشواربه وحرقدته ، وهو الموضع الناقء في الحلق ، والجمع الغلاصم ، وقيل : الغلصمة اللحم الذي بين الرأس والعنق . وقيل : متصل الحلقوم =

عليه صلاته وسلامه كلّ فضيلة ، وزوى عنه كلّ رذيلة ، واختصّه بكلّ توقير ، وبعدّ حاله من كلّ تحقير ، واختار له كلّ ما يقع عليه الاختيار ، وخوّله ما يطول به الافتخار ، فجعل ذاته خيرة الإنس وصفوة الأنبياء وسيّد الأموات والأحياء ، والأمة التي انتضاه منها خير أمة ، والأئمة الذين استخلفهم بعده خير أئمة ، وكتابه الذي أنزل عليه خير كتاب ، وأصحابه الذين قرنهم به خير أصحاب ، وزمانه الذي بعثه فيه خير زمان ، ولسانه الذي نطق به خير لسان ، ولا يحسن أن ينزل على أفضل رسول ، أفضل كتاب بلسان مفضول ، ومن لم يعقل عن الله تعالى : ﴿بَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٥٤) فلا عقل ، ومن لم ينقل : (خير اللسان العربي) فلا نقل ، ثم هو لسان أهل الجنة ، وذلك طول من ذي الطول والمنة .

ووجدت العرب كما يتباهون بالشدة في مواطن الحرب ، وبالنجدة في مقام الطعن والضرب ، وبدقّهم في النحور صدور الرماح ، وحطمهم في الرقاب متون الصفاح ، يتحلّقون فيعدّون أيّامهم في الجاهلية والإسلام ، ووقائعهم في أشهر الحلّ والإحرام ، كذلك حالهم في التباهي بالكلام الفحل ، والتباري في المنطق الجزل ، والافتخار بالألسن اللد ، وإرسالها في أودية الهزل والجد ، وبثبات الغدر^(٥٥) في مواقف الجدل والخصام ، وعند مصاكّ الركب ومصافّ الأقدام ، ليسوا في مجالدتهم بأشدّ منهم في مجادلتهم ، ولا في مقاتلتهم بأحدّ منهم في مقاولتهم ، ولقد نطقت بذلك أشعارهم ، وشهدت به آثارهم .

= بالخلق إذا ازدرد الأكل لقمته فزلّت عن الحلقوم ، وقيل : هي العجرة التي على ملتقى

اللهة والمريء ، «لسان العرب - غلصم - ١٢ : ٤٤١» .

(٥٤) سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٥ .

(٥٥) يقال : رجل ثبت الغدر : أي ثابت في قتال أو كلام «الصحاح - غدر - ٢ : ٧٦٦» .

قال لييد^(٥٦) :

ومقام ضيق فرجته ببيانى ولسانى وجدل
لويقوم الفيل أوفياءه زلّ عن مثل مقامي وزحل^(٥٧)
ورأيتهم يسؤون بين الجبناء واللكن ، ولا يفصلون بين العي والجبن ،
ويستكفون من الخطأ واللعن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا أفصح العرب بيد أني من
قريش ، واسترضعت في سعد بن بكر ، فأني يأتيني اللحن»^(٥٨) .

ويتحرّون أن ينطقوا بالكلم الفصاح ، وأن يمشوا فيها على
الأساليب الصّحاح ، باحثين عن مفرق الصواب ، ومصيبين منحر
الإعراب ، متيقّضين لما يُستفصح ، متنبّهين على ما يُستملح ، يسمعون
الكلمة العيئة فيشرّبون لها ، واللفظة العوراء فيشمتزّون منها .

(٥٦) لييد بن ربيعة بن مالك ، أبو عقيل العامري ، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في
الجاهلية من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، ووفد على النبي - صلى الله عليه وآله - ،
ويعّد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم ، وترك الشعر ، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً
واحداً ، قيل هو :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
وسكن الكوفة ، وعاش عمراً طويلاً ، وهو أحد أصحاب الملقات ، ومطلع معلقته :
.معفت الديار محلّها فمقامها بئى تأبّد غولها فرجامها

توفي سنة ٤١ للهجرة . «الأعلام ٥ : ٢٤٠» .

(٥٧) زحل الشيء عن مقامه : أي زلّ عن مكانه «لسان العرب - زحل - ١١ : ٣٠٢» وفيه
البيت الثاني عن لييد .

(٥٨) ذكره المتقي الهندي في كتر العمال ١١ : ٤٠٤/٣١٨٨٤ باختلاف يسير .

قال بعض أمراء العرب لأعرابي رأى معه ناقة فأعجب بها : هل أنزيت عليها ؟ قال : نعم أضربت بها أيها الأمير ! قال : أضربت بها ؛ قد أحسنت حين أضربت بها ، نعم ما صنعت إذ أضربت بها ، فجعل يرددها .

قال الراوي : فعلمت أنه إنما يريد أن يثقف بها لسانه .

وسمعت أنا كوفياً يسأل بدوياً عن ماوان^(٥٩) وقد شارفناها ، فقال : هي ميهة . فقال الكوفي : أميه ممّا كانت ؟ قال : إي والله أموه ممّا كانت . كأنه يصححها عليه .

ورأيت الخلق في المسجد الحرام يترادون الكلام في اللغات الفصحى ، ويتعادون من له في ميدان البلاغة الخطا الفسحي ، ويتذاكرون الكلمات التي تزيغ فيها الحاضرة^(٦٠) عن السنن ولا يتقحونها من العَجَر^(٦١) والأَبْن^(٦٢) كأن أفواههم للحكمة ينايع ، وهم على ذلك مطاييع .

هذا ، ولما سمعت العرب القرآن المجيد ملأت الروعة قلوبهم وملكت نفوسهم ، وهز الاستعجاب مناكبهم ، وأنغض رؤوسهم ، وبقي أذلقتهم لساناً وأغرقهم بياناً ، كالمحجوج إذا أبكته الحجة ، فأخذته

(٥٩) ماوان : واد فيه ماء بين الفقرة والربذة فغلب عليه الماء فسَمِيَ بذلك الماء ماوان ، قال في المعجم : فأما ماوان السنور فليس بينه وبين مساكن العرب مناسبة ولعل أكثرهم ما يدري ما السنور : وهي قرية في أودية العلاة من أرض اليمامة ، أنظر «معجم البلدان ٥ : ٤٥» ، مراصد الإطلاع ٣ : ١٢٢٢ .

(٦٠) أي أهل الحضر لأنهم مظنة اللحن .

(٦١) العَجَر : جمع عجرة ، وهي العقدة في عود وغيره ، ويقال : في كلامه عَجَرِيَّة وتعجرف أي جفوة «أساس البلاغة - عجر - ٢٩٤» .

(٦٢) الأَبْن : العَقْد تكون في القسي تُفسدُها وتعاب بها «النهاية - ابن - ١ : ١٧» .

جار الله الزخشري ٤٩

الرجة ، وكالياسر إذا أصبح مقموراً مقهوراً ، فقعد مبهوراً مبهوراً ،
وكالصريع إذا عن له من لا يبالي بصراعه ، وكالمرتبع^(٦٣) إذا غلبه من لا
يلتفت إلى ارتباعه ، ولقد قابلوه بأفصح كلامهم ، فقال منصفوهم : جرى
الوادي فطم على القرى^(٦٤) ، ومن يعبا بالعباء مع الوشي العبقرى^(٦٥)

وقال الوليد بن المغيرة المخزومي^(٦٦) : والله لقد نظرت فيما قال
هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ،
وإن أسفله لمعذق^(٦٧) ، وإنه ليعلو وما يعلى^(٦٨) .

(٦٣) رَّبَّع الحجر وارتباعه إشالته ورفعته لإظهار القوة «النهاية - ربع - ٢ : ١٨٩» .
(٦٤) مثل سائر ، معناه : جرى سيل الوادي فطم ، أي دَفَنَ ، يقال : طم السيل الركبة : أي
دفنها ، والقرى : مجرى الماء في الروضة ، والجمع أقرية وقریان و«على» من صلبة المعنى :
أي أتى على القرى ، يعني أهلكه بأن دفنه ، أنظر «مجمع الأمثال ١ : ٨٢٣/١٥٩» .
(٦٥) الوشي من الثياب معروف ، والعبقرى : الديباج ، أنظر «الصحاح - وشي - ٦ : ٢٥٢٤» ،
النهاية - عبقر - ٣ : ١٧٣» .

(٦٦) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من قضاة العرب في
الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم
دعوته ، ذكره ابن الأثير في الكامل تحت عنوان : ذكر المستهزين ومن كان أشد الأذى
للنبي (صلى الله عليه وآله) ، وهو والد خالد بن الوليد ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر
وهو ابن خمس وتسعين سنة ، ودفن بالحجون ، أنظر «الكامل في التاريخ ٢ : ٧١» ،
الأعلام ٨ : ١٢٢» .

(٦٧) أي له شعب وجذور ، وفي بعض المصادر : لمغدى ، وهو من الغدق أي الماء الكثير ،
وفي بعضها الآخر : لعذق ، والعنق : النخلة ، وهو استعارة من النخلة التي ثبت
أصلها .

(٦٨) ورد باختلاف في لفظه في دلائل النبوة ٢ : ١٩٨ ، تاريخ الإسلام : ١٥٥ ، السيرة
النبوية ١ : ٢٨٩ ، الوفا بأحوال المصطفى : ٥٥ ، وأخرجه الحاكم النيسابوري في
مستدرکه ٢ : ٥٠٦ ، عن ابن عباس ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط
البخاري ، ولم يخرجاه .

وبلغنا أن أعرابياً صلى خلف ابن مسعود^(٦٩) رضي الله عنه فتتبع في قراءته ، فقال الأعرابي : ارتبك الشيخ ، فلما قضى ابن مسعود صلاته ، قال : يا أعرابي إنه والله ما هو من نسجك ولا من نسج آبائك ، ولكنه عزيز من عند عزيز نزل ، وهو الحمّال ذو الوجوه ، والبحر الذي لا تنقضي عجائبه . قال الله لموسى عليه السلام : إنما مثل كتاب محمد في الكتب كمثل سقاء فيه لبن كلما مخضته استخرجت زبده..

فحينما عجزوا عن المماتنة^(٧٠) . فزعوا إلى المفاتنة ، ولما لم يقدروا على المقابلة أقبلوا على المقاتلة ، فكان فزعهم إلى شيء ، ليس من المتحدّي فيه في شيء ، دليلاً قاطعاً على تمام المعجزة ، وشاهد صدق لصحة النبوة بظهور المعجزة ، على أن عداوة المتحدّي هي العجز بعينه ، والتقصير بذاته ، لأن كل ذي منقبة إذا توقّل^(٧١) في مرتبة قد عجز عنها مدّعوها ، ولم يقدروا أن يطلعوها ، كان نتيجة عجزهم أن يشتملوا على الغيظ والضجر ، وقرينة تقصيرهم أن يقصدوه بالنكاية والضرر ، وأن يُقشّروه^(٧٢) بالعصا ويرجموه بالحصى .

والذي طولبوا به فعجزوا عنه هو الإتيان بسورة لو كتبت بين السور ،

(٦٩) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن ، من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) السابقين إلى الإسلام ، وولي بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) بيت مال الكوفة ، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان ، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً في سنة ٣٢ هـ .

أنظر «الإصابة في تمييز الصحابة ٢: ٣٦٨/٤٩٥٤ ، تهذيب التهذيب ٦ : ٤٣/٢٤ ، معجم رجال الحديث ١٠: ٣٢٢/٧١٦٠ ، الأعلام ٤: ١٣٧» .

(٧٠) المماتنة : المعارضة في جدل أو خصومة «تاج العروس - متن - ٩: ٣٤٠» .

(٧١) التوقّل : الإسراع في الصعود «النهاية - وقل - ٥ : ٢١٦» .

(٧٢) قشّره بالعصا : ضربه «القاموس المحيط - قشر - ٢ : ١١٧» .

لم تكن مشخلة^(٧٣) بين الدرر ، ولكن كواحدة منهن في حسناتها وبهائها ، ونورها وضيائها ، وبيانها الباهر ، وديباجها الفاخر ، حتى لو عُرضت على صيارفة المنطق ونقادها ، المميزين زيوفه وجياده ، لقالوا هي منها بالقرب ، لم يقولوا ليس عليها أبهة دار الضرب ، والجهة التي أتاهم العجز عنها امتياز السورة عن هذه الأجناس ، التي تتقلب في أيدي الناس ، من خطب يحبرونها^(٧٤) ، وقصائد يُسَيِّرونها ، ورسائل يسطرونها ، كما أن كل واحد من هذه الأجناس له حيز ، وبعضها عن بعض متميز ، وكل مستبد بطريق خاص إليه يتحى وإياه ينتهج ، ومثال ومنوال عليه يحتذي وعليه ينتسج ، فلو تُحدِّي الرجل بقصيدة شاعرة فجاء بخطبة باهرة أو رسالة نادرة ، أو تُحدِّي بخطبة أو رسالة غراء فعارض بقصيدة حذاء^(٧٥) ، لم يكن على شاكلة التحدِّي عاملاً ، ونُسب إلى قلة التهذي عاجلاً ، وتمثل له بقوله :

شكونا إليه خراب السواد فحرم فينا لحوم البقر
فكنا كما قال من قبلنا أريها السُّها^(٧٦) وتُريني القمر^(٧٧)

(٧٣) قال الليث : مشخلة كلمة عراقية ليس على بنائها شيء من العربية ، وهي تتخذ من

الليف والخرز أمثال الخلي «لسان العرب - شغلب - ١ : ٤٨٦» .

(٧٤) يقال حُبرَت الشيء تحبيراً إذا حسنته «النهاية - حبر - ١ : ٣٢٧» .

(٧٥) الحدو : من أجزاء القافية ، حركة الحرف الذي قبل الردف ، يجوز ضمته مع كسرتة ولا

يجوز مع الفتح غيره ، قاله ابن منظور في «اللسان - حدأ - ١٤ : ١٧٠» عن ابن سيده .

(٧٦) السُّها : كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به

أبصارهم «لسان العرب - سها - ١٤ : ٤٠٨» .

(٧٧) مثل سائر ، ذكره الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٢٩١ / ١٥٤٥ ، تحت عنوان «أريها استها

وتريني القمر» وذكر قصته ، وقال : وبعضهم يرويه «أريها السُّها وتريني القمر» ، يضرب

لمن يغالط فيما لا يخفى .

ذلك أن الشعر كلام ذو وزن وقَرِيٍّ (٧٨) ، وقافية وَرَوِيٍّ ، أكثره تمويهات وتخايل ، وأكاذيب وأباطيل ، ومن ثم سَمَوْه سحرًا ، وزعموا أن لكل شاعر جنياً ، وأنه معه رثياً ، وأن ذلك الجنّي يخطر بهجنانه ويلقنه إياه ويلقيه على لسانه .

والخطب والرسائل لا يمسّ طنب القريض أطنابها ، ولا تقرع يده أبوابها ، والسورة أبعد شوطاً منها في التميّز ، وأعلى فوقاً في المبانيّة والتحيز ، بدياجتها الخاصّة وذوقها وندائها على أن لا منظوم بطوقها ، وعلى أنها ليست من القريحة ، المعتصر لها ثرى السجّحة (٧٩) ، المستعان فيه بالرؤية والفكر ، المستملّى من لسان الزُكْن (٨٠) والجَجْر (٨١) ، وأن مثلهامعه مثل الحيوان الذي هو تسوية الله وتقديره ، مع التماثيل التي هي نقش المصوّر وتصويره ، عليها ضياء الجلالة الربانيّة ، وسيمياء (٨٢) الكتب السماويّة ، وأُبّهة المسطور في اللّوح المنزل في اللّوح (٨٣) وآئين (٨٤) الملقن منه وهو لسان الروح ، كأنك إذا قرأتها مشاهد

(٧٨) قال الزمخشري وغيره : أقرأ الشعر : قوافيه التي يختم بها ، كأقراء الطهر التي ينقطع عندها ، الواحد قرء ، وقرء ، وقرِيٍّ ، لأنها مقاطع الأبيات وحدودها . «النهاية - قرا - ٤ : ٣٢» .

(٧٩) السجّحة : الطبيعة «الصحاح - سجح - ١ : ٣٧٣» .
 (٨٠) الزُكْن والإزكان : الفطنة ، والحدس الصادق . «النهاية - زكن - ٢ : ٣٠٧» .
 (٨١) الجَجْر : العقل واللبّ ، لإمساكه ومنعه وإحاطته بالتمييز ، وفي التنزيل : هل في ذلك قسم لذي جَجْر . «لسان العرب - حجر - ٤ : ١٧٠» .
 (٨٢) السّومة والسّيمة والسياء والسّيمياء : العلامة . «لسان العرب - سوم - ١٢ : ٣١٢» .
 (٨٣) اللّوح الأول بالفتح : هو اللّوح المحفوظ ، والثاني بالضم : الهواء . «لسان العرب - لوح - ٢ : ٥٨٥» .

(٨٤) آئين : كلمة فارسية بمعنى الزينة ، استعملها الجاحظ في البخلاء في قصة محمد بن أبي =

سُبُحَات^(٨٥) وجه فاطرك ، ومعاین لملائكة عرشه بناظرك .

عن جعفر الصادق^(٨٦) رضي الله تعالى عنه : والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنهم لم يبصروه^(٨٧) .

= المؤمل فيها حكاة عن لسانه : وكانوا يعلمون أن إحصار الجدي إنما هو شيء من آئين الموائد الرفيعة .

وفي تاريخ العتيبي عند شرح هذا البيت في رثاء الصاحب بن عباد :

لم يبق للجود رسم منذ بنت ولا للسؤدد اسم ولا للمسجد آئين

قال : وكأنّه تعريب آئين ، وهو أعواد أربعة تنصب في الأرض وتزيّن بالبسط والستور والثياب الحسان ، ويكون ذلك في الأسواق والصحارى وقت قدوم ملك .

أقول : هو قوس النصر في مصطلح عصرنا هذا «هـ م» .

(٨٥) سُبُحَات الله : جلاله وعظمته ، وهي في الأصل جمع سُبُحة ، وقيل : أضواء وجهه

«النهاية - سبج - ٢ : ٣٣٢» .

(٨٦) أبو عبدالله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، سادس أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وإليه ينمى المذهب الجعفري ، لقّب بالصادق لصدق حديثه ، ولد في ١٧ ربيع الأول سنة ٨٠ هـ ، أمره في الشرف والفضل والعلم والعصمة أجلّ من أن يذكر في سطور ، قال ابن حجر : «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في البلدان» وجمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل ، ذكرهم الحافظ ابن عقدة في كتاب رجاله ، وذكر مصنفاتهم فضلاً عن غيرهم ، استشهد عليه السلام مسموماً لعشر سنين خلت من خلافة المنصور العباسي سنة ١٤٨ هـ ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجدّه عليهم السلام .

أنظر «أعيان الشيعة ١ : ٦٥٩ ، حلية الأولياء ٣ : ١٩٢ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٢٧/١٣١ ، الجرح والتعديل ٢ : ٤٨٧/١٩٨٧ ، رجال صحيح مسلم ١ : ٢٢١/١٢٠ ، تهذيب الكمال ٥ : ٧٤/٩٥٠ ، ميزان الاعتدال ١ : ٤١٤/١٥١٩ ، تهذيب ٢ : ٨٨/١٥٦ ، سير أعلام النبلاء ٦ : ٢٥٥/١١٧» .

(٨٧) رواه الشهيد الثاني في كتابه أسرار الصلاة : ٣٦ . ونقله عنه الفيض الكاشاني في المحجة

البيضاء ٢ : ٢٤٧ ، وفيها : ولكنهم لا يبصرون .

والمعاني التي تستودع الكتب والرسائل ، من معانيه ومؤدياته على مراحل ، وقد انطوت رصانة هذه المعاني والمقاصد تحت سلس الألفاظ العذبة الموارد ، مع تكاثر نكت علم البيان وفقره ، ومحاسن حجوله وغرره ، وغرائب وشبه وأعلام جبره ، تتثال ارسالاً على الناظر البصير ، وتزدحم أسراباً على الناقد النحرير .

وأنا اضرب لك سورة الكوثر - وهي أقصر السور - مثلاً أنصبه بين يديك ، وأجعله نصب عينيك ، فأنت أكيس الأكياس ، ومعك نُهيّة^(٨٨) كشعلة المقباس ، تكفيك الرزمة وإن كانت خفية والتنبيهة وإن كانت غير جليّة ، فكيف إذا ذلت بأنور من وضح الفلق ، وأشهر من شية^(٨٩) الأبلق .

أقول وبالله التوفيق : ورد على رسول الله صلى الله عليه وآله عن عدوّ الله العاص بن وائل^(٩٠) ما يهدم مقاله ، ويهزم محاله^(٩١) ، وينفّس

= وفي المصدرين أيضاً ، عنه عليه السلام : وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه فلما أفاق قيل له في ذلك ، فقال : ما زلت أردّد الآية على قلبي وعلى سمعي حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته .

قال الفيض : وفي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة .

(٨٨) النُهيّة : العقل «لسان العرب - نهى - ١٥ : ٣٤٦» .

(٨٩) الشّية : كلّ لون يخالف معظم لون الفرس وغيره ، وأصله من الوشي . «النهاية - شيه - ٥٢٢ : ٢» .

(٩٠) العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، من قريش ، أحد الحكام في الجاهلية ، كان نديماً لهشام بن المغيرة وأدرك الإسلام ، وظلّ على الشرك وبعدّ من المستهزئين ومن الزنادقة الذين ماتوا كفّاراً وثنيين ، وهو والد عمرو بن العاص صاحب معاوية . «الأعلام ٣ : ٢٤٧» .

(٩١) يقال : رجل يماحل : أي يدافع ويجادل ، من المِحال ، بالكسر ، وهو الكيد ، وقيل : المكر ، وقيل : القوة والشدة ، انظر «النهاية - محل - ٤ : ٣٠٣» .

عن رسوله ، وينيله نهاية سؤله ، فأوحى إليه سورة على صفة إيجاز واختصار ، وذلك ثلاث آيات قصار ، جمع فيها ما لم يكن ليجتمع لأحد من فرسان الكلام ، الذين يخطمون به بالخطام^(٩٢) ويقودونه بالزمام ، كسحبان^(٩٣) وابن عجلائن ، وأضرابهما من الخطباء المصاقع والبلغاء البواقع^(٩٤) الذين تفسحت في هذا الباب خطاهم ، وتنفس في ميادينه مداهم .

أنظر إلى العليم الحكيم كيف حذا ثلاث الآيات على عدد المُسَلِّيات ، من إجلال محل رسول الله وإعلاء كعبه ؛ وإعطائه أقصى ما يؤمله عند ربه^(٩٥) ، ومن الإيعاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص^(٩٦) ، وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية العاص ، ولا يحيد عن التفويض إليه محيذا ، فلا يذرّه واثباً وحيداً ، ومن الغضب له بما فيه مسلاته من الكرب ، من إلصاق عار البتر بالكلب^(٩٧) ، والإشعار بأن كان عدوّ الله بوراً ، ولم يكن إلّا هو صنوبراً^(٩٨) .

(٩٢) الخطّامُ : الزمام . وَخَطَمْتُ البعير : زممته «الصحاح - خطم - ٥ : ١٩١٥» .
(٩٣) سحبان بن زفر بن اياس الوائلي ، من باهلة ، خطيب يضرب به المثل في البيان ، يقال : «أخطب من سحبان» و«أفصح من سحبان» اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ، أسلم في زمن النبي ولم يجتمع به .
«الإصابة ٢ : ١٠٩ / ٣٦٦٣ ، بلوغ الأرب ٣ : ١٥٦ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٤٩ ، الأعلام ٧٩ : ٣» .

(٩٤) الباقعة : الرجل الداهية . «لسان العرب - بقع - ٨ : ١٩» ..

(٩٥) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

(٩٦) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ .

(٩٧) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ .

(٩٨) أي أبتراً عقب له «النهاية - صنبر - ٣ : ٥٥» .

ثم ، انظر كيف نُظِّمَت النظم الأنيق ، ورُتِّبَت الترتيب الرشيق ، حيث قُدِّمَ منها ما يدفع الدعوى ويرفعها ، وما يقطع الشبهة ويقطعها ، ثم لما يجب أن يكون عنه مسبباً ، وعليه مترتباً ، ثم ما هو تتمّة الغرض من وقوع العدو في مُغَوَّاتِهِ^(٩٩) التي حفر ، وصلى به بحرّ ناره التي سحر ، ومن الشهادة على إصاقه بالسليم عيبه ، وتوريكه على البريء ذنبه^(١٠٠) .

وتأمل كيف أنّ من أسند إليه إسداء هذه العطية ، وإيتاء هذه الموهبة السنية ، هو ملك السماوات والأرض ، ومالك البسط والقبض ، وكيف وسّع العطية وكثّرها ، وأسبغها ووفّرها ، فدلّ بذلك على عظم طرفي المعطى ، وعلى جلال جنبي المسدي والمسدى ، وقد علم أنّه إذا كان المُعْطِي كبيراً ، [كان] العطاء كثيراً ، فيالها من نعمة مدلول على كمالها ، مشهود بجلالها .

وأراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أمته ، جاء في قراءة عبدالله : ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وأزواجه أمهاتهم﴾^(١٠١) وما أعطاه الله في الدارين من مزايا الاثرة والتقديم ، ووضع

(٩٩) مُغَوَّاةٌ : حفرة كالزبية تحفر للذئب ، ويجعل فيها جدي إذا نظر إليه سقط عليه يريده . ومنه قيل لكل مهلكة مُغَوَّاةٌ «النهاية - غوا - ٣ : ٣٩٨» .

(١٠٠) ورَّك عليه ذنبه : حمله عليه «أساس البلاغة - ورك - ٤٩٧» .

(١٠١) قال المصنّف في الكشف ٣ : ٢٥١ : وفي قراءة ابن مسعود : ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم﴾ ، وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٤ : ١٢٣ : ثم إنّ في مصحف أبيّ بن كعب ﴿وأزواجه أمهاتهم هو أب لهم﴾ وقرأ ابن عباس ﴿من أنفسهم وهو أب لهم﴾ وأزواجه أمهاتهم .

وقال الطبرسي في مجمع البيان ٤ : ٣٣٨ : وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لما أراد غزوة تبوك ، وأمر الناس بالخروج ، قال قوم : نستأذن آبائنا وأمّهاتنا فنزلت هذه الآية . وروي عن أبيّ وابن مسعود وابن عباس أنّهم كانوا يقرؤون ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من =

في يديه من نواصي التفضيل والتكريم ، والثواب الذي لم يعرف إلا هو كنهه ، ولم يعط إلا الملك شبهه ، ومن جملة الكوثر ما اختصه به من النهر الذي حاله المسك^(١٠٢) ، ورَضْرَاضُهُ التُّوم^(١٠٣) ، وعلى حافاته من أواني الذهب والفضة ما لا يعاده النجوم .

ثم تبصّر كيف نكت في كل شيء تنكيتا ، يترك المنطق سكيّتا ، حيث بنى الفعل على المبتدأ فدلّ على الخصوصية ، وجمع ضمير المتكلّم فأذن بعظم الربوبية ، وصدّر الجملة المؤخّرة على المخاطب أعظم القسم ، بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ، ما ورد الفعل بلفظ الماضي ، على أنّ الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ، دلالة على أنّ المتوقع من سيّب^(١٠٤) الكريم في حكم الواقع ، والمترقّب من نعمائه بمنزلة الثابت الناقع . وجاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأنّ المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع ، والتناول على طريق الاتّساع ، واختار الصفة المؤدّنة بافراط الكثرة ، المترجمة عن المعطيات الدثرة ، ثمّ بهذه الصفة مُصدّرة باللام المعزفة ، لتكون لما يوصف بها شاملة ، وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة .

وعقّب ذلك بفاء التعقيب ، مستعارة لمعنى التسبيب ، يشتقّها معنيان ، صحّ تسبيب الإنعام بالعطاء الأكثر ، للقيام بما يضاهيه من الشكر الأوفر ، وتسليمه لترك المبالاة بقول ابن وائل ، وامثال قول الله عزّ من

= أنفُسهم وأزواجه أُمّهاتهم وهو أب لهم » وكذلك هو في مصحف أبيّ ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

(١٠٢) حاله المسك : أي طينه المسك . «النهاية - حول - ١ : ٤٦٤» .

(١٠٣) الرَضْرَاض : الحصى الصغار ، والتوم : الدر . «النهاية - ررض - ٢ : ٢٢٩» .

(١٠٤) السيّب : العطاء . «الصحاح - سيّب - ١ : ١٠٥» .

قائل ، وقصد باللامين^(١٠٥) التعريف بدين العاص وأشباهه ، ممّن كانت عبادته ونحره لغير إلهه ، وثبتت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم ، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم ، وأشار بهاتين العبادتين إلى نوعي العبادات ، وصنّفِي الطاعات ، أعني الأعمال البدنية التي الصلاة إمامها ، والمالية التي نحر البدن سنامها ، ونَبّه على ما لرسول الله من الاختصاص بالصلاة التي جعلت لعينه قرّة^(١٠٦) وبنحر البدن التي كانت همّته بها المُشْمِخِرَة .

روينا بالإسناد الصحيح أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرّة^(١٠٧) من ذهب^(١٠٨) .

وحذف اللام الأخرى لدلالته عليها بالأولى ، مع مراعاة حقّ التسجيع ، الذي هو من جملة صنعة البديع ، إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً ، ولم يكن متكلّفاً أو مصنوعاً ، كما ترى اسجاع القرآن وبُعدها عن التعسّف ، وبراءتها من التكلف .

وقال : ﴿لربك﴾ ، وفيه حسنان ، وروده على طريقة الالتفات^(١٠٩)

(١٠٥) أي بلام ﴿لربك﴾ ، واللام المحذوفة في قوله ﴿وانحر﴾ أي وانحر له ، كما سيصرّح بذلك «هم» .

(١٠٦) إشارة إلى قوله صَلَّى الله عليه وآله : حبيت إليّ من الدنيا ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة . «الخصال : ٢١٨/١٦٥» .

(١٠٧) البرّة : حلقة تجعل في لحم الأنف ، وربما كانت من شعر . «النهاية - بره - ١ : ١٢٢» .

(١٠٨) أخرجه البيهقي في مسنده ٢٣٠ : ٥ .

(١٠٩) قال ابن حمزة العلوي في الطراز ٢ : ١٣٢ : الالتفات : هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول ، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة ، لأنّ الأول يعمّ سائر الالتفاتات كلّها ، والحدّ الثاني إنّما =

التي هي أمّ من الأمّهات ، وصرف الكلام عن لفظ المضمّر إلى لفظ المظهر ، وفيه إظهار لكبرياء شأنه ، واناقة لعزّة سلطانه ، ومنه أخذ الخلفاء قولهم : يأمرك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة ، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة .

وعن عمر بن الخطاب (رض) أنّه حين خطب الأزدية أتى أهلها فقال لهم : خطب إليكم سيّد شباب قريش مروان بن الحكم ، وسيّد أهل المشرق حسن بن بجيلة ويخطب إليكم أمير المؤمنين - عني نفسه - .

وعلم بهذه الصفة أنّ من حقّ العبادة أن يخصّ بها العباد ربّهم ومالكهم ، ومن يتولّى معاشهم ومهالكهم ، وعرض بخطأ من سفه نفسه ونقض قضية لّبه ، وعبد مربوباً وترك عبادة ربّه .

وقال : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ فعلّل الأمر بالاقبال على شأنه ، وقلة الاحتفال بشأنه ، على سبيل الاستئناف ، الذي هو جنس حسن الموقع رائعه ، وقد كثرت في التنزيل مواقعه ، ويتّجه أن يجعلها جملة للاعتراض ، مرسلّة إرسال الحكمة لخاتمة الأغراض ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (١١٠) . وعني بالشانئء السهمي المرمي بسهمه ، وإنّما ذكره بصفته لا باسمه ، ليتناول كلّ من كان في مثل حاله ، من كيده بدين الحق ومحاله ، وفيه أنّه لم يتوجّه بقلبه إلى الصدق ، ولم يقصد به الافصاح عن الحق ، ولم ينطق إلّا عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد ، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ والحرد (١١١) .

= هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير ، ولا شكّ أنّ الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع وقد يكون على عكس ذلك فلهذا كان الحدّ الأول هو أقوى دون غيره .

(١١٠) سورة القصص ٢٨: ٢٦ .

(١١١) الحرد : الغضب . «تاج العروس - حرد - ٢: ٣٣٤» .

وكذلك وسمه بما ينبىء عن المقت الأشد ، ويدلّ على حق
الخصم الألدّ ، وعرف الخبر ليتّم له البتر ، كأنّه الجمهور^(١١٢) الذي يقال
له الصنور ، وأقحم الفصل لبيان أنّه المعين لهذه النقيصة ، وأنّه
المشخص لهذه الغميص^(١١٣) ، وذلك كلّ مع علوّ مطلعها ، وقصام
مقطعها^(١١٤) ، ومجاوبة عجزها لهاديتها^(١١٥) ، وسببها^(١١٦) لناصيتها ،
واتّصافها بما هو طراز الأمر كلّ من مجيئها مع كونها مشحونة بالنكت
الجلائل ، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل ، خالية من تصنع من يتناول
التنكيت ، وتعمل من يتعاطى بمحاجّته التبيكيت^(١١٧) ، كأنّها كلام من
يرمي به على عواهنه ، ولا يتعمّد إلى إبلاغ نكته ومحاسنه ، ولا يلقاك
ذلك إلّا في كلام ربّ العالمين ، ومدبرّ الكلام والمتكلّمين .

فسبحان مَنْ لو أنزل هذه الواحدة وحدها ، ولم ينزل ما قبلها وما
بعدها ، لكفى بها آية تغمر الأذهان ، ومعجزة توجب الإذعان ، فكيف بما
أنزل من السبع الطوال ، وما وراءها إلى المُفَصَّل^(١١٨) ، والمُفَصَّل ، يالها
من معجزة كم معجزات في طيّها ، عند كلّ ثلاث آيات تقرّ الألسن بعيّها ،
لو أراد الثقلان تسليّة المغيظ المحقق ؛ لأخذت من أفاصحهم بالمخنق ،

(١١٢) كذا .

(١١٣) يقال : اغتمصت فلاناً اغتمصاصاً : احتقرته «لسان العرب - غمص - ٧ : ٦١» .

(١١٤) مقاطع القرآن : مواضع الوقوف .

(١١٥) في الحديث : «طلعت هواذي الخيل» يعني أوائلها ، والهادي والهادية : العنق ؛ لأنّها

تتقدم على البدن ، ولأنّها تهدي الجسد . «النهاية - هدا - ٥ : ٢٥٥» .

(١١٦) السبب : شعر الذنب «لسان العرب - سبب - ١ : ٤٥٩» .

(١١٧) بكته بالحجة أي غلبه «لسان العرب - بكت - ٢ : ١١» .

(١١٨) المُفَصَّل من القرآن السبع الاخير ، وذلك للفصل بين القصص بالسور القصار ،

والفواصل آواخر الآي «مفردات ألفاظ القرآن - فصل - ٣٨١» .

جار الله الزمخشري ٦١
 إِنَّ هَمَّوْا بِإِنشاء سورة توازيها ، وثلاث آيات تدانيها . هيهات قبل ذلك
 يشيب الغراب ، ويسيب الماء كالسراب .

ودع عنك حدث الصرفة^(١١٩) ، فما الصرفة إلا صُفْرَة^(١٢٠) من
 النِّظام ، وفَهْة^(١٢١) منه في الإسلام ، ولقد رَدَّتْ على النظام صُفْرَتَهُ ، كما
 رَدَّتْ عليه طفرته ، ولو صحَّ ما قاله لَوَجَبَ في حكمة الله البالغة ، وحجَّته
 الدامغة أن ينزله على أركٍ نمط وأنزله ، وأفسل^(١٢٢) أسلوب وأسفله ،
 وأعراه من حلل البلاغة وحليَّها ، وأخلاه من بهيِّ جواهر العقول وثرِيَّها ،
 ثمَّ يقال لولاة أعلى الكلام طبقة وأمتنه ، ولأرباب أنقه طريقة وأحسنه :
 هاتوا بما ينحونحوه ، وهلمَّوا بما يحذوه ، فيعرضهم الحجز ، ويتبيَّن فيهم
 العجز ، فيقال قد استصرفهم الله عن أهون ما كانوا فيه ماهرين ، وأيسر ما
 كانوا عليه قادرين ، ألم ترهم كيف كانوا يعنقون^(١٢٣) في المِضمَّار فوققوا ،
 وينهبون الحلبة بخطاهم فقطفوا^(١٢٤) ، ولا يقال الله قادر على أن يأتي بما هو
 أفصح وأفصح ، وأملح لفظاً ومعنى وأملح ، فهلاً أتى بذلك المتناهي في

-
- (١١٩) الصرفة : هي ممَّا ذهب إليه النظام المعتزلي في إعجاز القرآن ، وهو صرف الدواعي عن
 المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً : حتَّى لو خلاهم سبحانه لكانوا
 قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً . أنظر «الملل والنحل ١ : ٥٨» .
 (١٢٠) يقال : إنَّه لفي صُفْرَة ، للذي يعتريه الجنون ، إذا كان في أيام يزول فيها عقله ، لأنهم
 كانوا يمسخونه بالزعفران . «الصحيح - صفر - ٧١٤ : ٢» .
 (١٢١) الفَهْة : السقطة والجهلة . يقال : فَهَّ الرجل يَفْهَهُ فَهَاهَةً وفَهَةً ، فهو فَهٌّ وفَهِيَّةٌ : إذا
 جاءته منه سقطه من العيِّ وغيره «النهاية - فهه - ٣ : ٤٨٢» .
 (١٢٢) الفسل : الرديء من كل شيء . «مجمع البحرين - فسل - ٥ : ٤٤٠» .
 (١٢٣) يعنقون : أي يسرعون . أنظر «لسان العرب - عنق - ١٠ : ٢٧٣» .
 (١٢٤) القُطاف : تقارب الخطر في سرعة ، من القطف : وهو القطع . «النهاية - قطف -
 ٤ : ٨٤» .

الفصاحة والتمادي في الملاحه ، فإن الغرض اتّضح الحُجّة وقد اتّضحت ، وافتضح الشُّبهة وقد افتضحت ، وإذا حصل الغرض فليس وراءه معترض .

وأما إغفال السلفِ لِمَا نحن بصددّه ، وإهمالهم الدلالة على شُننه ، والمشي على جَدِّهِ^(١٢٥) ، فلأنّ القوم كانوا أبناء الآخرة ، وإنْ نشأوا في جُحر هذه الغادرة ، ديدنهم قصر الآمال ، وأخذ العلوم لتصحيح الأعمال ، وكانوا يتوخَّون الأهمّ فالأهمّ والأولى فالأولى والأزلف فالأزلف من مرضاة المولى .

ولأنّهم كانوا مشاغِل بجرّ أعباء الجهاد ، مُعَنِّين^(١٢٦) بتقويم صفات أهل العناد ، مَعْكُوفِي الهِمَم على نشر الأعلام لنصرة الإسلام ، فكان ما بُعث به النبيّ عليه الصلاة والسلام لتعليمه وتلقينه ، وأُرسل للتوقيف عليه وتبيينه ، أهمّ عندهم ممّا كانوا مطبوعين على معرفته ، مجبولين على تبين حاله وصفته ، وكان إذ ذاك البيان غَضّاً طريّاً ، واللّسان سليماً من اللكنة بريّاً ، وطُرق الفصاحة مسلوكة سائرة ، ومنازلها مأهولة عامرة ، وقد مهّد عذرهم تعويلهم على ما شاع وتواتر ، واستفاض وتظاهر ، من عجز العرب وثبات العلم به ورسوخه في الصدور ، وبقائه في القلوب على ممرّ العصور .

وبعد انقراض أولئك العرب ، المائلة دَلَوِ البلاغة إلى عَقْدِ

(١٢٥) الجَدُّ : الأرض الصلبة ، وفي المثل : «من سلك الجدد أَمِنَ العُثار» . «الصحاح جدد - ٢ : ٤٥٢» .

(١٢٦) مُعَنِّين : أي متعينين . أنظر «لسان العرب» - عن - ١٣ : ٢٩٠ .

جار الله الزخشري ٦٣

الكَرْب (١٢٧) ، وبقاء رباعها (١٢٨) بغير طَلَل (١٢٩) ورَسْم (١٣٠) ، وذهابها
ذهاب جَدِيس وطَسْم (١٣١) ، لَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ إِلَّا نَحْوُ الْغَرَابِ
الْأَعْصَم (١٣٢) ، وَالنُّكْتَةُ (١٣٣) الْبَيْضَاءُ فِي نَقْبَةِ الْأَدْهَم (١٣٤) ، وَجُمْلَةُ تِلْكَ
الْبَقِيَّةِ قَدْ اتَّبَعُوا سَنَنَ الْأَوَّلِينَ ، وَكَانُوا عَلَى عِجْزِ الْعَرَبِ مَعُولِينَ ، وَلَمْ يَقُولُوا
كَمْ بَيْنَ إِيْمَانِ السَّحَارِ وَبَيْنَ إِيْمَانِ النَّظَارِ ، ثُمَّ أَدْرَجَ هَذَا الْعِلْمُ تَحْتَ طَيِّ
النَّسِيَانِ ، كَمَا يَدْرَجُ الْمَيِّتُ فِي الْأَكْفَانِ .

(١٢٧) مثل مأخوذ من قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب حيث يقول :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُنِي مَاجِدًا يَمْلَأُ الدُّلُوكَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

وهو الحبل الذي يشد في وسط العَرَاقِي ثُمَّ يَثْنِي ، ثُمَّ يَثْلُثُ ، لِيَكُونَ هُوَ الَّذِي يَلِي الْمَاءَ فَلَا
يَعْفَنُ الْحَبْلُ الْكَبِيرُ . يُضْرَبُ لِمَنْ يِبَالِغُ فِيمَا يَلِي مِنَ الْأَمْرِ أَنْظَرُ «مجمع
الأمثال ٢: ٤٢١/٤٧١٥» .

(١٢٨) الرَّبْعُ : المنزل ودار الإقامة ، وَرَبْعُ الْقَوْمِ مَحَلَّتُهُمْ ، وَالرُّبَاعُ جَمْعُهُ «النهاية - ربع -
١٨٩: ٢» .

(١٢٩) الطَّلَلُ : ما شخص من آثار الدار والجمع أطلال وطلول . «الصحاح - طلل - ٥ :
١٧٥٢» .

(١٣٠) الرَّسْمُ : الأثر ، أَنْظَرُ «مجمع البحرين - رسم - ٧٢: ٦» .

(١٣١) جَدِيس : قبيلة من العرب العاربة البائدة ، كانت مساكنهم اليمامة والبحرين ، وكان
يجاورهم طَسْم ، وهي قبيلة من العرب العاربة أيضاً ، تنتسب إلى طَسْم بن لاوذ بن إرم
ابن سام بن نوح ، وقد انقرضت . أَنْظَرُ «معجم قبائل العرب ١ : ١٧٢ و ٢ : ٦٨٠ ،
ومصادره» .

(١٣٢) الْغَرَابُ الْأَعْصَم ، الذي في جناحه ريشة بيضاء لأنَّ جناح الطائر بمنزلة اليد
له . «الصحاح - عصم - ٥ : ١٩٨٦» .

(١٣٣) النُّكْتَةُ ، بِالضَّمِّ : النقطة . «القاموس المحيط - نكت - ١ : ١٥٩» .

(١٣٤) الدُّهْمَةُ : السواد . يقال : فرس أدهم ، ويعبر أدهم ، وناقدة دهماء ، إذا اشتدت وُرْقَتُهُ
حتى ذهب البياض الذي فيه . «الصحاح - دهم - ٥ : ١٩٢٤» .

ولولا أنَّ الله أوزعني أنْ أنقض عليه لَمَّتي (١٣٥) ، وألهمني أنْ أنهض
إليه بهمَّتي ، حتَّى أنفقت على النظر فيه شبابي ، ووهبت له أمري ،
وكانت إجمالة الفكر في غوامضه دهري ، لم تسمع من أحد فيه همساً ،
ولم تلق من ينس منه بكلمة نبساً ، والله أسأل أنْ يهديني سُبُل الإصَابَةِ ،
ويُشِينِي على ذلك أحسن إثَابَةٍ ، فما نويت بما نويت بما لقيت فيه من عرق
الجبين ، إلَّا التوصل إلى ما فيه من ثلج اليقين ، وإلَّا استبانة حُجَّة الله
وبرهانه ، واستيضاح أنوار قرآنه ، وأنَّه يوفِّقني للخير وطلبه ، وأنْ ينظمني
في زمرة أهله ويختم لي به - تَمَّت .

(١٣٥) اللَّمَّة : الهمة ، والخطرة تقع في القلب «النهاية - لم - ٤ : ٢٧٣» .

* الفهارس العامة

- ١ - فهرس الآيات القرآنية
- ٢ - فهرس الأحاديث
- ٣ - فهرس الآثار
- ٤ - فهرس الأعلام
- ٥ - فهرس الأشعار
- ٦ - فهرس الكتب الواردة في المتن
- ٧ - فهرس الأمكنة
- ٨ - مصادر التحقيق

••

•

•

•

•

•

•

•

••

١ - فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
	هود (١١)	
وقيل يا أرض ابلعي مائك ويا سماء أقلعي وغيض الماء	٤٤	٣٢
	الشعراء (٢٦)	
بلسان عربي مبين	١٩٥	٤٦
	القصص (٢٦)	
إن خير من استأجرت القوي الأمين	٢٦	٥٩
	الكافرون (١٠٩)	
قل يا أيها الكافرون	١	٣٢
	النصر (١١٠)	
إذا جاء نصر الله والفتح	١	٣٢
	المسد (١١١)	
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ	١	٣٢

٢ - فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث
٥٥	أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، واسترضعت في سعد بن بكر، فأني
٤٧	يأتيني اللحن
٤٦	خير اللسان العربي
٥٣	والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنهم لم يبصروه

٣ - فهرس الآثار

الآثر	القائل	الصفحة
خطب إليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم ، وسيد أهل المشرق حسن بن بجيلة ، ويخطب إليكم أمير المؤمنين .	عمر بن الخطاب	٥٩
والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعذب ، وإنه ليعلو وما يعلى	الوليد بن المغيرة	٤٩
يا أعرابي إنه والله ما هو من نسجك ولا من نسج آبائك ، ولكنه عزيز من عند عزيز نزل ، وهو الحمال ذو الوجوه	ابن مسعود	٥٠

٤ - فهرس الاعلام

الاسم	الصفحة
(أ)	٣٧
ابن الأهم	٣٧
(ج)	٢٩
جار الله [الزغشري]	٢٩
جعفر الصادق (ع)	٥٣
أبو جهل	٥٨
(ح)	٥٩
حسن بن بجيلة	٥٩
(س)	٥٥
سحبان	٥٥
سعد بن بكر	٤٧
سيبويه	٤٣
(ع)	٥٨ ، ٥٥ ، ٥٤
العاصم بن وائل	٥٨ ، ٥٥ ، ٥٤